سلسلة الدين الصافي – ٣٨
www.saaid.net/kutob

نبذة مختصرة في أصول العقيدة الإسلامية

تأليف الفقير إلى عفو ربه الغني

ماجد بن سليمان الرسي

ربيع الأول ١٤٣٤ هـ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فإن العقيدة الإسلامية تقوم على ستة أركان ، وهي الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[2] الآية.

ودليل القدر قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.[3]

والدليل على هذه الأركان من السنة النبوية حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

---

[1] سورة البقرة: ١٧٧ .

[2] سورة البقرة: ٢٨٥ .

تنبيه: لما كانت سورة البقرة تحوي أصول الإيمان كان شأنها عظيما ، فإنها في الدنيا لا تستطيعها السحرة ، أي لا تُطيق سماعها ، ولا ينفُذ سحرُهم فيمن حافظ عليها ، وفي الآخرة تأتي كأنها سحابة تظلل صاحبها.

[3] سورة القمر : ٤٩ .

قال: صدقت.

قال: فعجبنا له ؛ يسأله ويُصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

وفي آخر الحديث قال النبي ﷺ لعمر: يا عمر ، أتدري من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم.[1]

فهذه الستة هي أركان الإيمان ، وهي بمثابة الساق للشجرة ، وأما الشعب فهي بمثابة الأغصان ، **وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الشعب في قوله: الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون – شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان.**[2]

وقد جمع القاضي عياض[3] رحمه الله هذه الشعب البِضع والستين[4] ، فقال:

هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن ، فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات ، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة:

---

[1] رواه مسلم (٨).

[2] رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) ، واللفظ له ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] هو العلامة عالم المغرب عياض بن موسى بن عياض ، القاضي أبو الفضل اليحصُبي السبتي ، مات سنة ٥٤٤ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٦٧/٤).

[4] جاء في رواية أخرى أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، وسيأتي الجمع بين اللفظين قريبا إن شاء الله.

١. الإيمان بالله ، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته ، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء

٢. والإيمان بملائكته

٣. وكتبه

٤. ورسله

٥. والقدر خيره وشره

٦. والإيمان باليوم الآخر ، ويدخل فيه المسألة في القبر ، والبعث ، والنشور ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجنة ، والنار

٧. ومحبة الله

٨. والحب والبغض فيه

٩. ومحبة النبي ﷺ

١٠. واعتقاد تعظيمه ، ويدخل فيه الصلاة عليه واتباع سنته

١١. والإخلاص ، ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق

١٢. والتوبة

١٣. والخوف

١٤. والرجاء

١٥. والشكر

١٦. والوفاء

١٧. والصبر

١٨. والرضا بالقضاء

١٩. والتوكل

٢٠. والرحمة

٢١. والتواضع ، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير

٢٢. وترك الكِبر والعُجب

٢٣. وترك الحسد

٢٤. وترك الحقد

٢٥. وترك الغضب

- وأعمال اللسان ، وتشتمل على سبع خصال:

١. التلفظ بالتوحيد

٢. وتلاوة القرآن

٣. وتعلم العلم

٤. وتعليمه

٥. والدعاء

٦. والذكر ، ويدخل فيه الاستغفار

٧. واجتناب اللغو

- وأعمال البدن ، وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة ، منها ما يختص بالأعيان[١] ، وهي خمس عشرة خصلة:

١. التطهير حِسًّا وحكما ، ويدخل فيه اجتناب النجاسات

٢. وستر العورة

٣. والصلاة فرضا ونفلا

٤. والزكاة كذلك

٥. وفك الرقاب

٦. والجود ، ويدخل فيه إطعام الطعام ، وإكرام الضيف

٧. والصيام فرضا ونفلا

٨. والحج والعمرة كذلك

٩. والطواف

١٠. والاعتكاف

١١. والتماس ليلة القدر

---

[١] أي المكلَّفين.

١٢. والفِرار بالدين ، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك

١٣. والوفاء بالنذر

١٤. والتحري في الأيمان

١٥. وأداء الكفارات

- ومنها ما يتعلق بالأَتباع[١] ، وهي ست خصال:

١. التعفف بالنكاح

٢. والقيام بحقوق العيال

٣. وبر الوالدين ، وفيه اجتناب العقوق

٤. وتربية الأولاد

٥. وصلة الرحم

٦. وطاعة السادة

٧. أو الرفق بالعبيد

- ومنها ما يتعلق بالعامة ، وهي سبع عشرة خصلة:

١. القيام بالإمرة مع العدل

٢. ومتابعة الجماعة

[١] أي الذين هم تحت يد المكلف ، من ولد وزوجة ورقيق ونحوه.

٣. وطاعة أولي الأمر

٤. والإصلاح بين الناس ، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة

٥. والمعاونة على البر ، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٦. وإقامة الحدود

٧. والجهاد ، ومنه المرابطة

٨. وأداء الأمانة

٩. والقرض مع وفائه

١٠. وإكرام الجار

١١. وحسن المعاملة ، ومنه جمع المال من حِلِّه

١٢. وإنفاق المال في حقه ، ومنه ترك التبذير والإسراف

١٣. ورد السلام

١٤. وتشميت العاطس

١٥. وكف الأذى عن الناس

١٦. واجتناب اللهو

١٧. وإماطة الأذى عن الطريق

فهذه تسع وستون خصلة ، ويمكن عدها تسعا وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضُم بعضه إلى بعضٍ مما ذُكر ، والله أعلم.[1]

أقول: وهذا البحث قد اختصرته من بحثي الموسع «تثبيت الإيمان في النفوس» ، وددت أن أشارك فيه بمشاركة متواضعة لشرح لأركان الإيمان الستة شرحا ميسرا ، فإنه من المعلوم أن أركان الإيمان تمثل أسس العقيدة الإسلامية ، التي من فهِمها فقد انفتح له باب الفهم لدين الإسلام وانفتح له بابه ، أسأل الله أن ينفع بهذا البحث كاتبه وقارئه وناشره ، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وكتبه ، ماجد بن سليمان الرسي

٢٩ ، جمادى الاخرة لعام ١٤٣٤ هجرية

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٦٧٦١

المملكة العربية السعودية

majed.alrassi@gmail.com ، www.saaid.net/book

[1] نقله ابن حجر عنه في «فتح الباري» (١/٦٨-٦٩) في شرح الحديث المتقدم ، باختصار يسير.

أركان الإيمان

الركن الأول: الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى

الثاني: الإيمان بربوبيته

الثالث: الإيمان بألوهيته

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته

تفصيل

الأول: الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى

دل على وجوده تعالى الفطرة والعقل والشرع والحس.

أما دلالة الفطرة على وجوده تعالى فإن كل مخلوق قد فُطِر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم ، ومصداق هذا من كتاب الله قوله ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾[1].

ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه طارىء ، لقول النبي ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجِّسانه.[2]

ولهذا نجد أن الإنسان بطبيعته وفطرته وبدهيته إذا أصابه الضُّر قال (يا الله) ، وقد ذُكر عن بعض الملاحدة أنه إذا أصابه شيء قال على فلتات لسانه (يا الله) من غير أن يشعر ، لأن فطرة الإنسان تدله على وجود الرب عز وجل.

فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على وجود الله.

وقد أقر المشركون في عهد النبي ﷺ بوجود الله تعالى ، كما قال تعالى عنهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3] ، والآيات في هذا الباب كثيرة.

---

[1] سورة الأعراف: 172 .

[2] رواه البخاري (1359) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] سورة الزخرف: 87 .

وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى فلأن هذه المخلوقات سابِقها ولاحِقها لابد لها من خالقٍ أوجدها ، إذ لا يمكن أن توجِد نفسَها بنفسِها لأن العدم لم يخلُق نفسه ، فإنه قبلَ وجودِه معدوم ، فكيف يكون خالقًا لغيره من الموجودات؟!

كذلك فإن وجود تلك المخلوقات صدفة بغير مُوجِد ممتنع لسببين ؛ **الأول**: أن كل حادِثٍ لابد له من مُحْدِث ، دلَّ على ذلك العقل والشرع ، قال تعالى ﴿أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[1].

والثاني: أن وجودها على هذا النظام البديع ، والتناسق المتآلف ، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها ، وبين الكائنات بعضها مع بعض ، بلا اضطراب ولا تصادم ؛ يمنع منعًا باتًا أن يكون وجودها صدفةً من غير مُوجِد ، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟! استمع إلى قول الله تعالى ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[2].[3]

يُذكر عن **أبي حنيفة** رحمه الله – وكان معروفا بالذكاء – أنه جاءه قوم من الملاحدة الدَّهرية[4] ويُسمَّون بالسُّمَنِّية[5] الذين ينكرون وجود الخالق جل وعلا ، وكان أبو حنيفة رحمه الله سيفاً على الدُّهرية ، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه ، فبينما هو يوماً في مسجده قاعدٌ إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله ، فقال لهم: أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم.

فقالوا له: هات.

فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة من الأثقال ، قد احتَوَشَتْها[6] في لُجّةِ البحر[7] أمواجٌ متلاطمةٌ ، ورياحٌ مختلفةٌ ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل؟

قالوا: لا ، هذا شيء لا يقبله العقل.

---

[1] سورة الطور: 35 .

[2] سورة يٰس: 40 .

[3] انظر في هذا الباب كتاب «إبداع الخالق في نظم خلقه دليل على وحدانيته» ، للشيخ عبد العزيز بن عبد الله الزهراني ، الناشر: دار التوحيد – الرياض.

[4] الدَّهري – بفتح الدال وتشديدها – هو الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة ، والدُّهري – بضم الدال وتشديدها – هو الرجل المُسِن. انظر «لسان العرب» ، مادة: دهر.

[5] السُّمَنِّيَّةُ قوم من أهل الهند دُهرِيُّون ، وقال الجوهري: فِرقة من عبدة الأصنام تقول بالتناسخ وتنكر وقوع العلم بالأخبار. انتهى المراد من «لسان العرب» ، مادة: سمن.

[6] أي أحاطت بها وجعلتها في وسَطِهَا. انظر «لسان العرب» ، مادة: حوش.

[7] لُجَّةِ البحر أي وسطه حيث يكثر ماؤه ولا تُرى اليابسه منه.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر ، مستوية من غير متعهد ولا مجري ؛ فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتبايُن أكنافِها[1] من غير صانع وحافظ؟!

فبكوا جميعًا وقالوا: صدقت ، وأغمدوا سيوفهم وتابوا.

وسُئل **الشافعي** رضي الله عنه: ما الدليل على وجود الصانع؟

فقال: ورقة التوت ، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟

قالوا: نعم.

قال: فتأكلها دودة القز[2] فيخرج منها الإبريسم[3] ، والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البَعْر[4] ، ويأكلها الظباء فيخرج منها المِسْك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟!

فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده ، وكان عددهم سبعة عشر.

وضرب **أحمد بن حنبل** رضي الله عنه مثلاً قلعة حصينة ملساء ، لا فُرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المُذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز[5] ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير.

وقد عَنى بالقلعة: البيضة ، وبالحيوان: الفرخ.

وسأل هارون الرشيد **مالكًا** عن وجود الصانع ، فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات.

فهذه نقولات عن الأئمة الأربعة في هذا الباب.

وسُئل أعرابي فقيل له: بم عرفت ربك؟

فقال: البَعرة تدل على البعير ، والروث على الحمير ، والأثر يدل على المسير ، فسماءٌ ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير؟

ورؤي ابن هانئ[6] في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: غَفَرَ لي بأبيات قلتها في النَّرجس ، وهي:

---

[1] أي أطرافها.

[2] القز هو الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يُستخرج ، ودودة القز أي دودة الحرير التي تنسج الحرير. انظر «المعجم الوسيط».

[3] الإبريسم هو أحسن الحرير. انظر «المعجم الوسيط».

[4] البعرة هي رجيع الغنم والإبل.

[5] الإبريز هو الذهب الخالص. انظر «المعجم الوسيط».

[6] وهو المكنى بأبي نواس.

تأمّل في نباتِ الأرض وانظر إلى آثارِ ما صنع المليكُ

عيونٌ من لُجينٍ[1] شاخصاتٌ[2] بأحداقٍ[3] كما الذهبُ السبيكُ[4]

على قُضُبِ الزَّبرجَدِ شاهداتٌ[5] بأن الله ليس له شريكُ

وأن محمدا عبدٌ رسولٌ إلى الثقلين[6] أرسله المليكُ[7]

ومن عجائب خلق الله البعوضة ، فقد أودع الله فيها من الحكم الشيء الكثير ، فأودع الله فيها قوة الحافظة والفكر ، وحاسة اللمس والبصر والشم ، ومنفذ الغذاء ، وأودع فيها جوفا وعروقا ومخا وعظاما ، فسبحان من قدر فهدى ، ولم يترك شيئا سدى.

قال أبو العلاء المَعَرِّي مبتهلا:

يا من يرى مدَّ البعوضِ جناحها في ظلمةِ الليلِ البهيمِ[8] الأليلِ[9]

ويرى مناطَ[10] عروقِها في نحرِها والمخَّ من تلك العظامِ النُّحَّلِ[11]

---

[1] اللجين هو الفضة ، شبّه الناظم زهرة النبات بها لأنها تشبه الفضة في لونها. «انظر «لسان العرب» ، مادة: لجن.

[2] يقال شَخَصَ الرجل ببصره إذا فتح عينيه وحدّ نظره ورفع جفنيه فلم يطرِف ، وقد وصف الناظم بعض الأزهار في إحداقها بأنها شاخِصات كعين الإنسان إذا شخصت وأحدقت ببصرها. انظر «لسان العرب» ، مادة: شخص.

[3] الحدَقة تطلق على حدقة العين وهي سوادها ، وقد شبَّه الناظم تلك الأزهار بالأحداق. انظر «لسان العرب» ، مادة: حدق.

[4] سبيك أي مسبوك ، وهو الذهب المفرغ في قالَب. انظر «لسان العرب» ، مادة: سبك.

[5] قُضُب جمع قضيب ، والمقصود غصن النبات ، والزبرجد هو الزُّمُرُّدْ ، جوهر معروف ، وقد وصف الناظم الغصن بالزمرد للمعانه وبريقه وبهاء منظره. انظر «لسان العرب» ، مادة: «قضب» ، و «زبرجد» ، وكذا «مختار الصحاح» للرازي ، مادة: «زبرجد».

[6] الثقلان هما الإنس والجن.

[7] ذَكر بعض المفسرين هذه القصص عن الشافعي وأحمد وهارون الرشيد وأبي نواس عند تفسير قوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.

كما ذكر هذه الشواهد الفخر الرازي في الدلالة على وجود الصانع في كتابه «مفاتيح الغيب» (2/108 – 109) ، الناشر: دار الفكر ، ط 1 ، سنة 1401 هـ .

[8] البهيم هو الأسود الذي لا يخالطه لون آخر. انظر «اللسان» ، مادة: بهم.

[9] أليل أي شديد الظلمة. انظر «اللسان» ، مادة: ليل.

[10] المناط من ناطَ أي علَّق ، يقال: ناطَ سِلاحه بالشجرةِ أي علقه عليها ، والمناط هو ما يُعلَّق فيه الشيء ، ومناط العروق في البيت المذكور هو ما تلتحم فيه العروق من جوانبها كأنها معلقة بها.

[11] النُّحَّلِ جمع نَحِيل أي رقيق ودقيق. انظر «لسان العرب» ، مادة: نحل.

ويرى خرير الدم في أوداجِها[1] متنقِّلا من مفصلٍ في مفصلِ

ويرى وصول غِذى الجنين ببطنِها في ظلمةِ الأحشا بغير تَـمَـقُّلِ[2]

ويرى مكان الوطءِ من أقدامِها في سيرها وحثيثها المستعجلِ

ويرى ويسمعُ حِسَّ ما هو دونَها في قاع بحرٍ مظلمٍ متهوِّلِ[3]

امنُن علي بتوبة تمحو بها ما كان مني في الزمانِ الأولِ[4]

وعلى هذا فيقال لمن جحد وجود الله في هذه الأزمنة: هل ما أُنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها محض صدفة؟

ولو حدَّثك شخصٌ عن قصرٍ مشيدٍ ، أحاطت به الحدائق ، وجرت بينها الأنهار ، ومُلئ بالفُرُشِ والأسِرَّة ، وزُيِّـن بأنواع الزينة من مُقوّماته ومُكمّلاته ، وقال لك : إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه ، أو وُجد هكذا صدفة بدون مُوجد ؛ أكنت مُصَدِّقه؟ الجواب: لا ، قطعا.

أيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه وأفلاكه وأحواله ونظامه البديع الباهر قد أوجد نفسه ، أو وُجد صدفة بدون موجد؟!

والحاصل أنه إذا لم يمكن أن توجِد هذه المخلوقات نفسها بنفسها ، ولا أن توجَد صدفة ؛ تعين أن يكون لها موجِد ، وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور ، حيث قال ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[5] ، يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم ، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى.

ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ

---

[1] الودْج عرق يجري فيه الدم. انظر «لسان العرب» ، مادة: ودج.

[2] المُقلة هي سواد العين وبياضها ، والتمقل هو تقليب العين في المنظور إليه وتحديق النظر فيها ، يقال: (تمقل في البضاعة) أي قلَّب نظره فيها ، ومقصود الناظم أن الله تعالى يرى ما في أحشاء البعوضة بغير كلفة.

[3] أي كثير الأهوال.

[4] ذكرها شهاب الدين أحمد الأبشيهي في كتابه «المستطرف في كل فن متستظرف» (ص 374) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط 1 ، سنة 1413 هـ .

وكذا ذكرها الزمخشري مختصرة في تفسيره المعروف بـ «الكشاف» (ص 1168) ، بتحقيق: مصطفى حسين أحمد ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط 3 ، سنة 1407 هـ.

[5] سورة الطور : 35 .

هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[1] ، وكان جبير يومئذ مشركًا ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.[2]

فصل

وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى ؛ فالكتب السماوية كلها تنطق بذلك ، ولأن ما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه ، وكذا ما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

وأيضا فإن ائتلاف القرآن وعدم تناقضه وتصديق بعضه بعضا ؛ يدل دلالة قاطعة على أنه من رب حكيم عليم ، قال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[3] ، فهذا دليل أيضا على وجود من تكلم بالقرآن وهو الله تعالى.

فصل

وأما دلالة الحس على وجود الله فمن وجهين:

أحدهما: أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى ، إذ أن إجابة الدعاء تدل على أن هناك ربا سمع دعاء من دعاه فأجابه ، فإنه لم يدعُ إلا الله ، قال الله تعالى ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائما فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا.

قال أنس: ولا والله ، ما نرى في السماء من سحابٍ ولا قَزَعَةٍ[6] ولا شيئا ، وما بيننا وبين سَلْع[7] من بيتٍ ولا دار ، قال: فطلعت من ورائه[1] سحابة مثل التُّرسِ[2] ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، قال: والله ما رأينا الشمس سَبْتاً[3].

---

[1] سورة الطور : 35 – 37 .

[2] رواه البخاري مفرقا ، (4853) ، (4023).

[3] سورة النساء: 82 .

[4] سورة الأنبياء : 76 .

[5] سورة الأنفال : 9 .

[6] القزعة هي القطعة من الغيم. انظر «النهاية».

[7] سلع اسم جبل بالمدينة.

ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبله قائما فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام[4] والجبال والظِّراب[5] والأودية ومنابت الشجر.

قال: فانقطعت ، وخرجنا نمشي في الشمس.[6]

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا لمن صدق في لجوئه إلى الله تعالى وأتى بأسباب الإجابة.

الوجه الثاني: أن آيات الأنبياء التي تسمى بالمعجزات ويشاهدها الناس أو يسمعون بها ؛ برهان قاطع على وجود مرسلِهم ، وهو الله تعالى ، لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر ، يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم.

مثال ذلك: آية موسى ﷺ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه فانفلق أثنى عشر طريقًا يابسًا ، والماء بينها كالجبال ، قال الله تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[7].

ومثال ثان: آية عيسى ﷺ حيث كان يحيي الموتى ، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله ، قال الله تعالى ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾[8].

ومثال ثالث حصل لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية ، فأشار إلى القمر ، فانفلق فرقتين فرآه الناس ، وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[9] ، فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم ؛ تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى.

---

[1] أي من وراء سلع.

[2] الترس قطعة من الحديد مستديرة يتَّقي بها المحارب السهام. انظر «النهاية».

[3] قال ابن الأثير في «النهاية»: قيل: أراد أسبوعا ، من السبت إلى السبت ، وقيل: أراد بالسبت مدة من الزمان قليلة كانت أو كثيرة.

[4] الآكام جمع أكمة وهي الرابية. انظر «النهاية». قلت: والرابية معروفة ، وهي المكان المرتفع ، وتسمى بالربوة أيضا.

[5] الظراب جمع ظرِب ، وهو الجبل الصغير. انظر «النهاية».

[6] أخرجه البخاري (1019) ومسلم (897).

[7] سورة الشعراء: 63 .

[8] سورة المائدة: 110 .

[9] سورة القمر: 1- 2 .

الثاني: الإيمان بربوبيته

الإيمان بربوبية الله تعالى يعني الإيمان بأن الله وحده هو الرب لا شريك له ولا معين ، والرب: من له الخلق والملك والأمر – أي أمر تدبير هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا آمر إلا هو ، قال تعالى مبينا انفراده بالخلق ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1] ، وقال ﴿بديع السماوات والأرض﴾[2] ، وقال ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾.[3]

وأعظم ما خلق الله عشرة ، وهي السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والناس والدواب والمطر والرياح ، وقد تمدح الله تعالى بخلقها كثيرا في القرآن لاسيما في أوائل بعض السور كسورة الجاثية ، قال تعالى ﴿ حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾.

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾[4] ، وقوله ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾[5] ، وقوله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[6].

ودليل انفراده بالأمر قوله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ، وقال ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[7] ، وقال ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾[8] ، وقوله ﴿وإليه يُرجع الأمر كله﴾[9].

وسُئل أعرابي: بم عرفت ربك؟

---

[1] سورة الأعراف: 54 .
[2] سورة البقرة: 117 .
[3] سورة فاطر: 1 .
[4] سورة الإسراء: 111 .
[5] سورة الملك: 1 .
[6] سورة فاطر: 13 .
[7] سورة يٰس: 82 .
[8] سورة السجدة: 5 .
[9] سورة هود: 123 .

فقال: (بنقض العزائم وصرف الهمم) ، وصدق ذلك الأعرابي ، فالإنسان يعزم أحيانا على الشيء وفي لحظة يجد نفسه قد نقض عزمه وعزم على تركه ، وقد يهم الإنسان بالشيء متجها إليه ثم ينصرف بدون سبب ، وهذا يدل على أن للأمور مدبرا فوق تدبير الإنسان ، وهو الله عز وجل.

فصل

- والأمر نوعان ؛ أمرٌ شرعيٌّ ديني وأمرٌ كوني ، **فأمره الشرعي الديني** هو أمره المتعلق بالشرائع والنبوات ، فإن الله هو وحده الذي يأمر بما شاء من الشرائع ، وينسخ ما يشاء منها ، بحسب ما تقتضيه حكمته جلَّ وعلا ، وهو الذي يُشَرِّع للناس ما يناسبهم وما يُصلِح حالهم ، وما هو مقبول عنده من العبادات والأعمال ، لأنه هو الخبير بحالهم ، العليم بما يصلحهم ، الرحيم بهم.

مثال ذلك أن الله جل وعلا نسخ شريعة موسى بشريعة عيسى ، ثم نسخ شريعة عيسى بشريعة محمد ﷺ ، وهي الإسلام ، وجعلها متضمنة لجميع ما في الشرائع قبلها من المحاسن وزاد عليها ، وألغى ما فيها من التكاليف الشديدة ، وجعلها شريعة سمحة ليس فيها حرج ولا صعوبة.

ومن ذلك أيضا أن في بعض الشرائع التي سبقت شريعة الإسلام أن الإنسان إذا أصاب ثوبه نجاسة (بول مثلا) فعليه أن يَقُصَّ المكان المتنجس من ثوبه للتخلص من تلك النجاسة ، أما في شريعة الإسلام فيكفي غسل موضع النجاسة بالماء.

ومن ذلك أيضا أن في شريعة التوراة أن من أراد أن يُصلي فعليه الذهاب إلى البَيْعة ، وكذلك في شريعة عيسى من أراد أن يُصلي فعليه الذهاب إلى الكنيسة ، أما في شريعة الإسلام فالإنسان له أن يُصلي في أي مكان شاء على وجه الأرض أو في السماء في الطائرة ، أو في البحر – في الباخرة.

ومن أوامر الله الشرعية الدينية أن الله يأمر بالعدل والإحسان ، قال تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُم لعلكم تذكرون﴾[1].

وقال تعالى ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به﴾[2] ، أي نِعْمَ ما يعظكم الله به ويهديكم إليه.

- والنوع الثاني من أمر الله هو الأمر الكوني ، وهو المتعلق بتدبير أمور الكون ، فالله وحده هو الذي يأمر بجريان السحاب ونزول المطر والحياة والموت والرزق والخلق والزلازل وتفريج الكربات ونهاية العالم ونحو ذلك من الأمور التي تحدث في الكون ، فإذا أمر الله بشيءٍ منها حصل لا محالة ، لا مُغالب له ولا

[1] سورة النحل: 90 .

[2] سورة النساء: 58 .

مُبطل ، كما قال الله تعالى ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[2] ، أي: وما أمرُنا للشيء إذا أردنا حصوله إلا أن نقول قولةً واحدة وهي (كن) فيكون ذلك الشيء كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين.

فالحاصل أن أمر الله ينقسم إلى نوعين ؛ أمرٌ كونيٌّ ، وأمرٌ ديني شرعي ، يترتب عليه أحكام الجزاء يوم القيامة.[3]

فصل

ومما يدل على تفرد الله سبحانه بالأمر ؛ قدرته تعالى على إجراء تأثير ذلك الأمر على خلاف العادة ، ومن ذلك أنه جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام ، قال الشنقيطي رحمه الله:

ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾[4] ، فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معان مختلفة ، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادا من حرها ، في الوقت الذي هي فيه كائنة بردا وسلاما على إبراهيم ، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقةً إنما هو بمشيئة خالق السماوات والأرض ، وأنه يُسبِّب ما شاء من المُسبَّبات على ما شاء من الأسباب ، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا.

ومن أوضح الأدلة في ذلك أنه ربما جعل الشيء سببا لشيء آخر مع أنه مناف له ، كجعله ضربَ ميتِ بني إسرائيل ببعضٍ من بقرة مذبوحة سببا لحياته[5] ، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته ، إذ لا تُكسب الحياة من ضربِ ميتٍ ، وذلك يوضح أنه جل وعلا يُسبب ما شاء من المسبَّبات على ما شاء من الأسباب ، ولا يقع تأثير البتة إلا بمشيئته جل وعلا.

انتهى كلامه رحمه الله.[6]

---

[1] سورة النحل: 40 .

[2] سورة القمر: 50 .

[3] انظر كلام ابن تيمية رحمه الله في الفرق بين الأمر الكوني والأمر الديني في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، ص 278 – 279 ، تحقيق: د. عبد الرحمٰن اليحيى، الناشر: دار الفضيلة – الرياض.

وانظر ما قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في تفسير قول الله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾. سورة الأعراف: 54 .

[4] سورة الأنبياء: 69 .

[5] انظر تفسير «أضواء البيان» ، عند قوله تعالى من سورة مريم ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

[6] يشير إلى قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وإذ قتلتم نفسا فادارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾.

فصل

ولم يُعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه ، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد لما يقول ، كما حصل من فرعون حين قال لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1] ، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾[2] ، لكن ذلك ليس عن عقيدة ، بل عن تَكبُّرٍ وتَجَبُّرٍ ، قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[3] ، وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا﴾[4].

فصل

وقد كان المشركون في عهد النبي ﷺ يُقِرُّون بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة ، فأنكر الله عليهم ذلك ، لأن الإقرار بالربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام حتى يُضم إليه إفرادُه بالعبودية ، قال تعالى لنبيه حاثا له على أن يقول للمشركين المعترفين لله بالربوبية ، المشركين معه غيره في العبادة ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُون * قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُون * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُون * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُون﴾[5].[6]

فصل

وعودا على موضوع الخلق ، فيحسن هنا ذكر لفتة لطيفة ، وهي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض لحكم جليلة وغايات عظيمة ، فذكر في بعض الآيات أنه خلقهما لإعلام خلقه أنه على كل شيء قدير ، وأنه محيط بكل شيء ، كما في قوله تعالى ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن لتعلموا أن الله على كل كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾[7].

---

[1] سورة النازعات: 24 .

[2] سورة القصص: 38 .

[3] سورة النمل: 14 .

[4] سورة الإسراء: 102 .

[5] سورة المؤمنون: 84 – 89 .

[6] انظر ما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآيات ، وكذا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير آية يونس: 31 ، وآية يوسف: 106 ، وآية الإسراء: 9 من ابتداء قوله: ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا ... الخ.

[7] سورة الطلاق: 12 .

وذكر في أكثر المواضع من القرآن أنه خلقهما ليعلم الناس أنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه ، كما في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وإلٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم﴾ ثم قال بعدها ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ إلى آخر الآية.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليبتلي الناس كما في قوله تعالى في مطلع سورة هود ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أحسن عملا﴾.

وذكر في الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليجزي الناس بأعمالهم كما في سورة النجم ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾.

قال الشنقيطي رحمه الله: فقد يظن غيرُ العالِم أن بين هذه الآيات اختلافا ، مع أنها لا اختلاف بينها ، لأن الحُكمَ المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد ، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده ، فقوله ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾ وقوله ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ راجع إلى شيء واحد ، هو العلم بالله ، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يُعلِّمهم الله إياه ويُرسل لهم الرسل بمقتضاه ليَهلِك من هَلك عن بَيِّنة ، ويحيا من حيَّ عن بينة ، فالتكليف بعد العلم ، والجزاء بعد التكليف ، فظهر بهذا اتفاق الآيات ، لأن الجزاء لا بُدَّ له من تكليف ، وهو الابتلاء المذكور في الآيات ، والتكليف لا بد له من علم ، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق ، ودل بعضها على أنها الابتلاء ، ودل بعضها على أنها الجزاء ، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه ، وبعضه مرتب على بعض.

انتهى كلامه رحمه الله.[1]

قلت: وهذا الذي وضَّحه الشيخ رحمه الله من الحِكَم من خلق السماوات والأرض هو (الحق) الذي أشار الله تعالى إليه في قوله ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾[2] ، وقال ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[3] ، فقوله ﴿بالحق﴾ أي لحكم باهرة ، ليس عبثا ولا سدى ، وهي إفراده بالعبادة ، وليعلم الناس عظيم قدرته وسعة علمه وإحاطته ، وتكليف الخلق وابتلاؤهم ، ثم جزاؤهم في الآخرة بأعمالهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

---

[1] «أضواء البيان» ، سورة الذاريات ، تفسير قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

[2] سورة الأحقاف: 3 .

[3] سورة الأنبياء: 16 - 17 .

«ولـما ظـن الكفـار أن الله خلـق السـماوات والأرض ومـا بينهمـا بـاطلا ، لا لحكمـة تكليـف وجـزاء وحسـاب ؛ هـدَّدهم بالويـل مـن النـار بسـبب ذلـك الظـن السَّـيء في قولـه تعـالى ﴿ومـا خلقنـا السـماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[1]».[2]

وقد نزه الله تعالى نفسه عن خلق السماوات والأرض عبثا ، كما نزه أولو الألباب ربهم سبحانه وتعالى عن ذلك كما في قوله تعالى في آخر سورة آل عمران ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

فالحمد لله على نعمة القرآن.[3]

[1] سورة ص: 27 .

[2] قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» ، تفسير سورة الأحقاف ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾.

[3] انظر المرجع السابق فمنه استفدت عامة ما ذُكِر من الحكمة من خلق السماوات والأرض ، وانظر كذلك كلامه في سورة الذاريات ، تفسير قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

الثالث: الإيمان بألوهيته

الإيمان بألوهية الله يعني الإيمان بأنه وحده الإله الحق لا شريك له ، المستحق للعبادة دون مَن سواه ، ومعنى «الإله» أي المألوه ، وهو المعبود حُبًا وتعظيمًا ، قال الله تعالى ﴿و إلٰهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمٰن الرَّحِيمُ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إله إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] ، وكل ما اتُّخذ إلٰها يُعبد من دون الله أو مع الله فعبادته باطلة ، قال الله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرِ﴾[3].

فصل في براهين توحيد الألوهية

واعلم رحمك الله أن البرهان الأعظم على استحقاق الله تعالى لأن يُعبد وحده دون ما سواه هو تفرده تعالى بربوبية هذا الكون[4] ، لا شريك له في ذلك ولا معين ، والرب هو من بيده الخلق والملك والرزق والأمر – أي أمر تدبير هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا رازق إلا هو ، ولا آمر إلا هو ، قال تعالى مبينا تفرده بالخلق ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿بديع السماوات والأرض﴾[6] ، بديع أي مبدِع[7] ، والمعنى مُوجد السماوات والأرض.

وقال تعالى ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾[8] ، ومعنى فاطر أي موجد[9].

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك﴾[10] ، وقوله ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾[11] ، وقوله تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[12].

---

[1] سورة البقرة: 163 .

[2] سورة آل عمران: 18 .

[3] سورة الحج: 62 .

[4] سيأتي ذكر براهين أخرى بعد هذا الفصل.

[5] سورة الأعراف: 54 .

[6] سورة البقرة: 117 .

[7] انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

[8] سورة فاطر: 1 .

[9] انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

[10] سورة الإسراء: 111 .

[11] سورة الملك: 1 .

[12] سورة فاطر: 13 .

ودليل انفراده بالأمر – ويعبر عنه أيضا بالتدبير – قوله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ، وقوله ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[1] ، وقوله ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾[2] ، وقوله ﴿وإليه يُرجع الأمر كله﴾[3].

فتدبير هذا الكون من إحياءٍ وإماتةٍ ، ومطرٍ وجدبٍ ، وغنًى وفقرٍ ، وصحةٍ ومرضٍ ، وأمنٍ وخوفٍ ، وغير ذلك مما يجري في هذا الكون ؛ إنما هو بأمر الله تعالى.

ودليل انفراده بالرزق قوله تعالى ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾[4].

وقد كانت دعوة الرُّسل – عليهم الصلاة والسلام – مُنصَبَّةً على هذا النوع من التوحيد – أي توحيد الألوهية – ، وكانوا قاطبة يقولون لأقوامهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰه غَيْرُهُ﴾[5] ، ولكن أبى ذلك المشركون ، واتخذوا من دون الله آلهة ، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى ، ويستنصرون بهم ويستغيثون.

وضد توحيد الألوهية الشرك في عبادته تعالى ، وهو صرف شيء من العبادات لغير الله ، أيًّا كانت تلك العبادة ، كعبادة القبور ، بدعائها ، والذَّبح لها ، والنّذر لها ، والطَّواف بها ، والتَّمسُّح بأعتابها ، ونحو ذلك من الأفعال ، فهذه من الأفعال الشركية التي تنقض إيمان العبد بأن الله وحده هو المستحق لأن يعبد دون ما سواه.

فصل في ذكر البراهين الشرعية والعقلية على بطلان الشرك في عبادة الله

وقد أبطل الله تعالى اتخاذَ المشركين آلهة يعبدونها معه ببراهين شرعية وعقلية كثيرة ، فأما الشرعية فمثل قوله تعالى ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾[6] ، وقوله تعالى لنبيه ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾[7].

وأما البراهين العقلية على بطلان الشرك فكثيرة ، منها:

الأول: أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية ، فهي مخلوقة لا تَخلُق ، ولا تجلب نفعًا لعابديها ، ولا تدفع عنهم ضررًا ، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا ، ولا تملك شيئًا من

---

[1] سورة يٰس: 82 .

[2] سورة السجدة: 5 .

[3] سورة هود: 123 .

[4] سورة الروم: 40 .

[5] سورة الأعراف: 59 .

[6] سورة المائدة: 72 .

[7] سورة الزمر: 66 .

السماوات والأرض ، ولا تشارك الله في ملكيتها ، قال الله تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[1] ، وقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم من دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم من ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2] ، وقال ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[3].

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة ، فإن اتخاذها آلهة من أسفَهِ السَّفهِ وأبطلِ الباطل.

الثاني: أن هؤلاء المشركين كانوا يُقِرُّون بأن الله تعالى هو وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو يُجير[4] ولا يُجارُ عليه ، وهذا يستلزم أن يوحِّدوه بالألوهية كما وحَّدوه بالربوبية ، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُون﴾[5] ، وقال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون﴾[6] ، وقال ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُون﴾[7].[8]

فصل

وقد اعتنى علماء المسلمين من المتقدمين والمتأخرين بموضوع توحيد الألوهية ، وألفوا في بيانه وبيان ما يناقضه مؤلفات عدة ، وغالبها يقع ضمن مؤلفات أخرى وليست مؤلفات مستقلة ، إلا أن كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من أفضل الكتب في توحيد الألوهية ، ففيه ذكر فضل التوحيد وأنواعه ونواقضه ومكملاته ، وقد اعتنى العلماء به منذ أُلِّف تدريسا وشرحا ، فله شروح كثيرة تتجاوز العشرين شرحا ، أنفسها شرحان ؛ الأول «تيسير العزيز الحميد

---

[1] سورة الفرقان: 3 .

[2] سورة سبأ: 22- 23 .

[3] سورة الأعراف : 191- 192 .

[4] يُجِير أي ينقذ ، وقوله: (ولا يُجار عليه) أي لا يستطيع احد أن ينقِذ أحدا من عذابه.. انظر «لسان العرب» ، مادة: جور.

[5] سورة البقرة: 21-22 .

[6] سورة العنكبوت: 61 .

[7] سورة يونس: 31-32 .

[8] والبراهين العقلية على بطلان الشرك كثيرة ، وقد يسر الله إعداد بحث بعنوان «خمسون دليلا على بطلان دعاء غير الله» ، حشدت فيه جمعا من الأدلة الشرعية والعقلية على بطلان الشرك ، وهو منشور على شبكة المعلومات ، فليراجعه من أراد الاستزادة.

بشرح كتاب التوحيد» لحفيده الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله[1] ، والثاني «القول المفيد بشرح كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله[2].

[1] الشيخ سليمان من فحول علماء نجد ، ولد سنة 1200 هـ ، درس على عدة مشايخ ، وعنده إجازة في رواية الكتب الستة ، درَّس وولي القضاء ، وتوفي شابا شهيدا بإذن الله سنة 1234 هـ ، له عدة مؤلفات ، من أشهرها كتابه «تيسير العزيز الحميد» ، والكتاب على مدى ثلاث قرون ينهل منه العلماء وطلبة العلم إلى وقتنا هذا ، وهو عمدة في علم توحيد العبادة ، وما بعده عيال عليه ، رحمه الله رحمة واسعة.

[2] هو الشيخ الأصولي الفقيه المفسر محمد بن صالح بن عثيمين ، من علماء القرن الخامس عشر الهجري ، برَّز في العقيدة والفقه والتفسير ، نفع الله به الناس في زمانه نفعا عظيما ، وانتشر علمه في الآفاق ، سواء منه ما كان مسجلا على الأشرطة أو ما كان مدونا في الكتب ، له طلبة كثر ، جُمعت فتاواه ورسائله فوقعت إلى حين كتابة هذه الأسطر في 29 مجلدا ، وبعد وفاته استؤجرت قناة فضائية لبث علمه ، فتضاعف انتشار علمه على ما كان في حياته ، وهذا من دلائل الإخلاص ، نحسبه كذلك والله حسيبه ، والله يؤتي فضله من يشاء.
انظر ترجمته في كتاب «ابن عثيمين الإمام الزاهد» للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام.

الرابع: الإيمان بأسماء الله وصفاته

مدخل

الإيمان بأسماء الله وصفاته له مكانة عظمى في العقيدة الإسلامية ، فقد تمدح الله كثيرا في كتابه العزيز بأسمائه وصفاته ، كقوله تعالى ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ ، وقوله ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة.

كما أثنى النبي ﷺ على ربه في مواضع كثيرة من السنة الشريفة ، ونعته فيها بنعوت الجلال وصفات الكمال.

والإيمان بأسماء الله وصفاته يوجب للعبد خشيته ، ومن ثَمَّ عبادته على الوجه الذي يُرضي الله تعالى ، فإن الأمر كما قيل: (من كان بالله أعرف كان له أخوف)[1] ، ولهذا كان العلماء بأسماء الله وصفاته هم أخشى الناس لله تعالى ، كما قال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

ولما كان الإيمان بأسماء الله وصفاته بهذه الأهمية ؛ وجب على المؤمن الإيمان بها على الوجه المطلوب شرعا ، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، ودليل وجوب إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى قوله ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2] ، ودليل وجوب إثبات صفات الكمال له قوله تعالى ﴿ولله المثل الأعلى﴾[3] ، أي الوصف الكامل ، وقوله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[4].

والإيمان الصحيح بأسماء الله وصفاته يقتضي أمرين ؛ الأول: فهمها كما جاءت ، وضده تحريف معانيها عما تقتضيه اللغة العربية وفهم السلف الصالح لها.

والأمر الثاني: الوقوف في أسماء الله وصفاته عند ما ورد في الكتاب والسنة ، وضده ابتداع اسم أو وصف لله لم يَرِد في أحدهما.

ويحسن بنا هنا التنبيه إلى قاعدة هامة جدا في باب فهم الأسماء والصفات ، وهي أن معيار الفهم الصحيح للأسماء والصفات هو مطابقة ذلك الفهم لفهم السلف الصالح ، وهم الصحابة رضوان الله

---

[1] رواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (786) عن أحمد بن عاصم الأنطاكي.

[2] سورة الأعراف: 180 .

[3] سورة النحل: 60 .

[4] سورة الشورى: 11 .

عليهم والتابعين لهم بإحسان وأتباعهم ، أهل القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية في قوله: خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم.[1]

وكيف لا تكون تلك القرون خير القرون وهم أتباع الصحابة ، الذين شهد لهم الله تعالى بالخيرية في القرآن في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

وأخبر أنهم أحق بكلمة التقوى وأنهم أهلها ، فقال في سورة الفتح ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾.

وشهِد لهم في آخر سورة الأنفال بأنهم هم المؤمنون حقا ، قال تعالى ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

ونوَّه سبحانه وتعالى برضاه عنهم في سورة التوبة ، فقال عزَّ من قائل عليما ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾.

بل قد أثنى الله عليهم في الكتب السابقة – التوراة والإنجيل – فقال في آخر سورة محمد ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في **التوراة** ومثلهم في **الإنجيل** كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾.

أقول: وكيف لا تكون تلك القرون الثلاثة خير القرون ، وهم أتباع الصحابة ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[2]؟ أي: فإن آمن الناس بمثل إيمانك يا محمد وإيمان أصحابك – ويدخل في ذلك إيمانهم بالأسماء والصفات – فقد اهتدوا ، وإن تولوا عن طريقكم وحادوا عنه فإنما هم يشاقُّون الله ورسوله وقد قال الله تعالى ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾[3].

وبموجب هذه الأدلة وغيرها مما ورد في فضل الصحابة مما لا يحصى كثرة ؛ أجمع المسلمون على عدالتهم وفضلهم وسبقِهِم في الإسلام على كل من جاء بعدهم ، وأنهم القدوة الدينية لمن جاء بعدهم.

---

[1] تقدم تخريجه.

[2] سورة النساء: 115 .

[3] سورة البقرة: 137 .

إذا تقرَّر هذا ؛ فلا أَحَدَ أعلمُ بمراد الله ورسوله في باب الأسماء والصفات – أو غيره من أبواب الدين – منهم ، أي الصحابة رضوان الله عنهم وأتباعهم ، أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، والمعبر عنهم بالسّلف الصالح ، فالواجب على كل من جاء بعدهم اقتفاء أثرهم ، وردُّ كل ما خالفَ فَهْمَهم ، واعتقاد أنه فهم باطل ، وافتراء للكذب على الله تعالى ، إذ كيف تجهل القرون الثلاثة المفضلة الفهم الصحيح لمعاني الأسماء والصفات ثم يفهمها من جاء بعدهم بقرون؟! هذا لا يقبله شرع ولا عقل.

خاتمة الركن الأول

ثمرات الإيمان بالله تعالى

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى ، بحيث لا يتعلق بغيره رجاءً ولا خوفاً ، ولا يَعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالى وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.[1]

[1] قاله ابن عثيمين رحمه الله كما في «شرح ثلاثة الأصول» ، ص 90 .

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

(الملائكة عالم غيبي مخلوقون ، عابدون لله تعالى ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، خلقهم الله تعالى من نور ، ومنَحهم الانقياد التام لأمره ، والقوة على تنفيذه ، قال الله تعالى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1] ، وقال ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[2].

وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج أن النبي ﷺ رُفع له البيت المعمور في السماء ، فسأل جبريل عنه فقال: هذا البيت المعمور ، يُصلِّي فيه كل يوم سبعون ألف مَلَكٍ ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم.[3]

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علِمنا اسمه منهم ، كجبريل ، وأما من لم نعلم اسمه فنؤمن بهم إجمالا.

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم الخَلقية ، كصفة جبريل ، فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خُلق عليها وله ست مئة جناحٍ قد سدَّ الأفق.[4]

وقد يتحول المَلَكُ بأمر الله تعالى إلى هيئةِ رجلٍ ، كما حصل لجبريل حين أرسله الله تعالى إلى مريم فتمثل لها بشرًا سويًا ، وحين جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه ، جاءه بصفة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد من الصحابة ، فجلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخِذيه ، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها ، فأجابه النبي ﷺ ، فانطلق ، ثم لما سأل الصحابة النبي ﷺ عنه قال: هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم.[5]

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط كانوا في صورة رجال)[6].

---

[1] سورة التحريم: 6 .

[2] سورة الأنبياء: 19 – 20 ، ومعنى ﴿لا يستحسرون﴾ أي لا يتعبون ولا يسأمون. انظر «تفسير الطبري».

[3] أخرجه البخاري (3207) ومسلم (164).

فائدة: وقد جاء وصفهم في التنزيل بأنهم يصُفون صفوفا إذا قاموا لطاعة ربهم من صلاة وغيرها ، قال تعالى ﴿والصافات صفا﴾ ، وقال تعالى على لسان الملائكة ﴿وإنا لنحن الصافون﴾.

[4] رواه البخاري (3232 ، 3233) ، ومسلم (174 ، 177) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[5] رواه مسلم (8).

[6] «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص 90 – 91 ، بتصرف يسير.

قلت: ولكن هذا التحول من هيئة إلى هيئة لا يكون إلا بأمر الله عز وجل.

وأعظم الملائكة وصْفاً في خَلْقه وخُلُقه هو جبريل عليه السلام ، فقد وصفه الله بأنه ﴿رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾[1] ، أي ذو مكانة عند ربه ، ثم قال ﴿مُطاعٍ ثَمَّ أمين﴾[2] ، أي مُطاعٍ عند سائر الملائكة ، أمين على الوحي.

كما وَصفَهُ الله بالقوة الخَلقية في قوله عن نبيه محمد ﴿علَّمه شديد القوى * ذو مِرّة فاستوى﴾[3] ، أي أن الذي علَّم محمدا الوحي هو جبريل ، وصفه الله بأنه شديد القوى ، أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة ، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه ، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ، ومنعِه من اختلاس الشياطين له ، أو إدخالهم فيه ما ليس منه ، وهذا من حفظ الله لوحيه ، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.[4]

وقوله ﴿ذو مِرَّةٍ﴾ ، المِـرّةُ هي السلامة والصحة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة ، وذلك يستلزم كمال الخِلقة وحسنها وجمالها ، فهي القوة والصحة المتضمنة صحة وجمالا ، قال ذلك ابن القيم في «الإغاثة»[5].

الرابع: الإيمان بما علِمنا من أعمالهم العامة والخاصة التي يقومون بها امتثالا لأمر الله تعالى ، فأما العامة فكتسبيح الله ، والتَّعبُّد له ليلا ونهارًا بدون ملل ولا فتور ، قال تعالى عنهم ﴿فالتاليات ذكرا﴾[6].

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة ، مثل جبريلَ الأمينُ على وحي الله تعالى ، يرسله الله به إلى الأنبياء والرسل ، وقد يتنزل أفراد من الملائكة بشيء من الوحي ، قال تعالى ﴿فالمُلقيات ذكرا * عذرا أو نذرا﴾[7] ، أي: تُلقي الذِّكر على الأنبياء لأجل الإعذار – وهو قطع العذر بالتبليغ – ، أو الإنذار.

ومثل ميكائيلَ الموكَلُ بالقطْرِ ، أي بإنزال المطر.[8]

ومثل المَلَكِ الموكَلُ بالنفخِ في الصُّور[1] ، والمشهور أن اسمه إسرافيل[2] ، والصُّور قرنٌ يُنفخُ فيه كما

---

[1] سورة التكوير: 19 – 20 .

[2] سورة التكوير: 21 .

[3] سورة التكوير: 5 – 6 .

[4] انظر «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» للشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي.

[5] (129/2) ، تحقيق الفقي.

[6] سورة الصافات: 3 .

[7] سورة المرسلات: 5 – 6 .

[8] رواه النسائي في «الكبرى» ، كتاب عشرة النساء ، باب كيف تؤنث المرأة ، (9024) ، وأحمد (274/1) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وحسنه الشيخ مقبل الوادعي بمجموع طرقه كما في تحقيقه لتفسير ابن كثير (242/1) ، وكذا محققو «المسند».

جاء في الحديث[3] ، وذلك عند قيام الساعة وبعث الخلق.

وهؤلاء الثلاثة هم أعظم الملائكة.

وقد كان النبي ﷺ عند افتتاح صلاة الليل يتوسل بربوبية الله على هؤلاء الملائكة أن يهديه لما اختلف من الحق بإذنه ، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف قال: سألتُ عائشة أم المؤمنين: بأيِّ كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟

قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته:

اللهم ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيل ، فاطرَ السماوات والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.[4]

وهؤلاء الملائكة مُوكَلون بما فيه حياة ، فجبريل مُوكَلٌ بالوحي الذي فيه حياة القلوب ، وميكائيل مُوكَلٌ بالقطر الذي في حياة الأرض ، وإسرافيل مُوكَلٌ بالنفخ في الصور ، وعنده تكون حياة الأجساد يوم المعاد.

ومن الملائكة أيضا مَلَكُ الموت ، وهو المُوكَلُ بقبض الأرواح عند الموت ، قال تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾.[5]

---

[1] روى الترمذي (3243) وأحمد (7/3) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: كيف أنعم وقد التقم صاحب القَرن القَرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفُخ؟

قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟

قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا ، وربما قال سفيان: على الله توكلنا.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وصححه الألباني كما في الصحيحة (1079) ، وكذا محققو «المسند».

[2] جزم به ابن جرير رحمه الله كما في تفسير آية الزمَر ﴿ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن في الأرض﴾ (الآية: 68).

وانظر كلام علماء التفسير عند هذه الآية ، وكذا عند قوله تعالى ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ (الأنعام: 73).

وقد ورد أن إسرافيل أحد حملة العرش ، كما روى ذلك أبو الشيخ في كتاب «العظَمة» (برقم 288 ، 477) بلفظ: «إن ملكا من حملة العرش يقال له إسرافيل ...» ، ولكنه ضعيف الإسناد كما قال ذلك محقق الكتاب رضا الله المباركفوري ، الناشر: دار العاصمة – الرياض ، الطبعة الأولى 1411 هـ..

[3] روى أبو داود (4742) والترمذي (3244) واللفظ له عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال أعرابي: يا رسول الله ، ما الصور؟ قال: قَرنٌ يُنفخُ فيه.

وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (1080).

[4] رواه مسلم (770).

[5] ومن الأخطاء الشائعة تسمية ملَكَ الموت بعزرائيل ، وهذه التسمية لم تثبت لا في الكتاب ولا في السنة ، بل الذي ثبت هو تسميته بملك الموت ، كما في سورة قوله تعالى في سورة السجدة ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ ، فالواجب أن نقف عند كلام الله ولا نتعداه.

وملك الموت له أعوان من الملائكة ، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكة بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يُـفَرِّطون﴾.[2]

ومعنى يُفرِّطون أي يُضَيِّعون ، أي لا يُضَيِّعون ما وُكِلَ إليهم من مهام.

ومنهم الملائكة السياحون في الأرض ، يلتمسون حِلَقَ الذِّكر ، فإذا وجدوا حَلْقَةَ علمٍ وذكرٍ تنادَوا وجلسوا وحَفُّوا أصحاب الحلْقةِ بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.[3]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بالأجِنَّة في الأرحام إذا تمَّ للإنسان أربعةُ أشهرٍ في بطن أمه ، فعندئذ يُرسل الله إليه مَلَكًا ، ويأمرهُ بِكَـتْبِ رزقِهِ وأجلِه وعملِه ، وشقي هو أم سعيد.[4]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها ، لكل شخص ملكان ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، كما قال تعالى ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[5] ، وقال تعالى ﴿وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾[6].

ومنهم الملائكة المُوكَلون بسؤال الميت إذا وضع في قبره ، ويسألانه عن ربه ودينه ونبيه.[7]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بخدمة أهل الجنة ، وهم خزنتها أي المؤتمنون عليها ، قال تعالى في أهل الجنة ﴿وَالمِلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم من كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[8].

انظر للفائدة تفصيلات أخرى في «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله (60/1) وما بعده.

[1] سورة الأنعام: 93 .

[2] سورة الأنعام: 61 .

[3] انظر صحيح البخاري (6408) ، ومسلم (2689).

[4] انظر ما رواه البخاري (3208) ومسلم (2643) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[5] سورة ق: 17 – 18 .

روى ابن جرير في «تفسيره» عن مجاهد قال: ملك عن يمينه ، وآخر عن يساره ، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير ، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

وقد صحح الشيخ د. حكمت بشير ياسين إسناد هذا الأثر عن مجاهد كما في «التفسير الصحيح ، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور» (378/4) ، ط 1 ، الناشر: دار المآثر – المدينة.

[6] سورة الانفطار: 10–12 .

[7] انظر حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري (1374).

فائدة: جاء تسميتهما بـ «المنكر والنكير» في حديث رواه الترمذي (1071) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (1391) ، وليس في هذه التسمية نكارة ، فإنهما منكران من جهة أن الميت لا يعرفهما ، وقد قال إبراهيم للملائكة ﴿قوم منكرون﴾ ، الذاريات: 25 ، قاله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه على «العقيدة الواسطية».

[8] سورة الرعد: 23– 24 .

ومنهم الملائكة المُوكَلون بالنار ، ورئيسهم هو مالك ، خازن النار ، أي المؤتمن عليها ، قال تعالى على لسان أصحاب النار ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾[1].

ومن الملائكة مَلَكَ الجبال ، الذي أتى النبي ﷺ بعدما لاقى من قومه ما لاقى ، فقال له: إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين[2].

فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا.[3]

ومنهم الملائكة الزاجرات للسحاب ، تسوقه إلى حيث يريد الله تعالى ، قال تعالى ﴿فالزاجرات زجرا﴾[4].

فالحاصل أن الملائكة تقوم بأمر الله الذي وَكَلَها به بحسبها لتدبير أمور الكون.

والملائكة خلق كثير ، لا يحصيهم إلا الله تعالى ، قال تعالى ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[5].

وقد سمَّى الله تعالى الملائكةَ رُسُلا ، لأنها تقوم بما أرسلها الله به من وظائف ، قال تعالى في سورة فاطر ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة **رسلا** أولي أجنحة﴾[6] ، فالملائكة مرسلة بالوحي وقبض الأرواح وتسخير الرِّياح والسَّحاب – أي سَوْقها – وكَتْبِ أعمالِ بني آدم وغير ذلك.

ولعظم شأن الملائكة وما تقوم به ؛ أقسم الله بهم فقال ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ ، فدل هذا على شرفهم.

ومن الملائكة من هم قائمون بعبادة الله على الدوام ، كما قال النبي ﷺ : أطَّت[7] السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَكٌ واضعٌ جبهته ساجدا لله.[8]

فتأمل أيها المؤمن كيف أن السماء على سعتها فإنها تضيق بالعُبَّاد من الملائكة ، فسبحان الله العظيم.[9]

والإيمان بالملائكة يثمرُ ثمرات جليلة منها[1]:

---

[1] سورة الزخرف: 77 .

[2] الأخشبان جبلان عظيمان بمكة.

[3] رواه البخاري (3231) ومسلم (1795) عن عائشة رضي الله عنها.

[4] سورة الصافات: 2 .

[5] سورة المدثر: 31 .

[6] سورة فاطر: 1 .

[7] الأطيط هو صوت الأقتاب ، وهو ما يوضع على ظهور الإبل من الخشب ونحوه ليكون كالكرسي للراكب ، والمعنى أن كثرة الملائكة قد أثقل السماء حتى أطَّت. انظر «النهاية».

[8] رواه الترمذي (2312) وابن ماجه (4190) وأحمد (5؟173) ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (1722) وكذا محققو «المسند».

[9] وانظر للمزيد من الاستفادة المراجع التالية:

1. ما قاله ابن أبي العز الحنفي في كتابه «شرح العقيدة الطحاوية» في الإيمان بالملائكة ، ص 299 – 301 ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.
2. ما قاله ابن القيم رحمه الله في «روضة المحبين» (1/73 – 75) ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.
3. ما قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في أول تفسير سورة النازعات.

أولا: العلم بعظمة الله تعالى وقوته وسلطانه ، فإن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق سبحانه.

ثانيا: شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم ، حيث وَكَّلَ من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم.

ثالثا: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى.

[1] هذا الفصل منقول من «شرح الأصول الثلاثة» لابن عثيمين ، ص 92 ، بتصرف يسير.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب

الكتب جمع كتاب ، والكتاب بمعنى (مكتوب) ، والمراد بالكتب هنا الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق ، وهداية لهم ، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.[1]

وقد أرسل الله مع كل رسول كتابا ، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾[2].

كما أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، قال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[3].

والمقصود بالإيمان بالكتب في الآية هو الإيمان بها على وجهها الذي أنزلت به على الأنبياء قبل التحريف ، وإلا فمن المعلوم أن جميع الكتب المنزلة قد أصابها التحريف والتبديل إلا القرآن ، قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[4].

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يتضمن خمسة أمور[5] ، نذكرها على سبيل الإجمال ثم نفصل القول فيها:

الأول: الإيمان بأنها أُنزلت من عند الله حقاً.

---

[1] انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٤ .

[2] سورة الحديد: ٢٥ .

[3] سورة البقرة: ١٣٦ .

[4] سورة الحجر: ٩ .

[5] يراجع «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ٩٤ ، فقد ذكر الشيخ أربعة أمور ، ومنَّ الله بواحدة.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها.

الرابع: العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها.

الخامس: الإيمان بأنها تدعو إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد.

تفصيل

الأول: الإيمان بأنها أُنزلت من عند الله حقاً ، كما قال تعالى في وصف المؤمنين ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ ، وقال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[1].

وإنزال الكتب كان من طريق الوحي ، فقد أوحى الله بالكتب إلى الملك المختص بإنزال الوحي من السماء إلى الأنبياء ، وهو جبريل ، ثم قرأها جبريل على الأنبياء فحفظوها ، ثم كل نبي يقرأ كتابه على القوم المُرسل إليهم.

نبذة عن إنزال القرآن

جبريل رسولٌ ملَك ، ومحمَّدٌ رسولٌ بشر ، والله يصطفي من الملائكة رسلاً لأداء مهام معينة ، ويصطفي من الناس رسلا لأداء مهمة تبليغ الرسالة ، فاصطفى لنقل كلامه (القرآن) الرسول المَـلائكي وهو جبريل ، واصطفى لنقل القرآن الذي يحمل رسالة الإسلام رسوله البشري وهو محمد

[1] سورة البقرة: ١٣٦ .

ﷺ ، فنزل الرسول المَلَائكي بالقرآن على الرسول البشري ولقنه إياه أجزاءً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الأحداث.

واختيار الله تعالى لجبريل عليه السلام دون غيره من الملائكة للقيام بهذه المهمة إنما هو لما فيه من صفات القوة والأمانة وغيرهما ، وقد وصفه الله بذلك في القرآن ، فقال ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾ ، وقوله ﴿نزل به﴾ أي نزل بالقرآن ، والروح هو جبريل.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها ، وهي ستة ، صحف إبراهيم وموسى ، والتوراة التي أُنزلت على موسى ﷺ ، والإنجيل الذي أُنزل على عيسى ﷺ ، والزبور الذي أُوتيه داود ﷺ ، والقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ، وبعض العلماء يقول إن صحف موسى هي التوراة فتكون خمسة.

وأما ما لم يأت ذكر اسمه من تلك الكتب فنؤمن به إجمالاً.

والذي ينبغي على المؤمن الإيمان به هو الإيمان بالكتب الأصلية التي أنزلها الله على أنبياءه ، وليس بما تحرف منها ، فنؤمن مثلا بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ ، ونؤمن بالإنجيل الذي أنزله الله على المسيح عيسى ابن مريم ﷺ ، فتلك هي التوراة وذلك هو الإنجيل ، وليست الكتب المنتشرة الآن في أيدي اليهود والنصارى هي التوراة والإنجيل الأصليين وإن سَمَّوها بذلك ، بل الذي بيد النصارى الآن هي أربعة أناجيل وثلاثة وعشرون رسالة ، وهي أسفار تمت كتابتها من قِبَل أشخاص لم يلتقوا بالمسيح ولم يروه لحظة واحدة ، بل كتبوها بعد رفعه إلى السماء ، وهي في مضمونها لا يطابق واحد منها الآخر ولا في واحد في المئة من محتواها ، وبينها من التناقض والاختلاف الشيء الكثير ...

وإذا أُضيفت أسفار العهد القديم الستة وأربعون (المكونة من التوراة وغيرها) إلى أسفار العهد الجديد (الإنجيل) السبعة وعشرين صار مجموع الأسفار ثلاثة وسبعين ، يؤمن البروستانت بستة وستين منها ، ولا يؤمنون بالبقية ، بينما يؤمن الأرثودكس والكاثوليك بها كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الإنجيل الذي بأيديهم فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ، ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملوه بعد رفع المسيح «متى» و «لوقا»، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذِكر أقواله وأفعاله.[1]

وقال أيضا: هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الإنجيل – وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلا – إنما كتبها هؤلاء بعد أن رُفع المسيح ، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلَّغها عن الله ، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح ، وأشياء من أفعاله ومعجزاته ، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه.[2]

فالحاصل أن الله أمر بالإيمان بالكتب الأصلية التي أنزلها الله على أنبياءه ، وتلك هي التي وصفها الله بأنها هدى ونور ، قال الله في القرآن عن التوراة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُور﴾ ، وقال في القرآن عن الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِين﴾.

ولما تعرضت كتب الأنبياء للضياع ولم تحفظ ، أرسل الله نبيه محمدا ﷺ بالقرآن ، وحفِظه من التحريف والضياع كما قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون﴾ ، والذِّكر هو القرآن.

---

[1] باختصار يسير من «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٤٩١/١) ، الناشر: دار الفضيلة – الرياض.

[2] «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١٤/٢).

والقرآن كلام الله ، تكلم الله به حقيقة ، ثم بلَّغه المَلَك جبريل إلى النبي محمد ﷺ ، ثم بلَّغه النبي محمد لأصحابه ، ثم حُفظ في الصدور ، ثم حُفظ في الأوراق والقراطيس ، ثم جُمِع القرآن في كتاب واحد في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم نُسِخت النسخ على تلك النسخة إلى يومنا هذا ، وصدق الله ﴿إنا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون﴾.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها ، كأخبار القرآن ، والأخبار التي لم تُبدل أو تُحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها ، عملا بقول الله تعالى ﴿يريد الله ليبين لكم **ويهديكم سنن الذين من قبلكم** ويتوب عليكم﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله **فبهداهم اقتده**﴾[2].

فائدة

وللعلم ؛ فإن القرآن حاكمٌ ومهيمنٌ على جميع الكتب السابقة ، فهي منسوخة به على وجه الإجمال ، ويستثنى من ذلك العقائد وما أقره القرآن والسنة من الشرائع كما تقدم ، قال تعالى ﴿وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[3] ، أي حاكمًا عليه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

---

[1] سورة النساء: ٢٦ .

[2] سورة الأنعام: ٩٠ .

[3] سورة المائدة: ٤٨ .

فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتَمَن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ، ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة ، ومن أسماء الله (المهيمن) ، ويسمى الحاكم على الناس ، القائم بأمورهم ؛ (المهيمن) ، قال المبرد والجوهري وغيرهما: المهيمن في اللغة ؛ المؤتمن.

وقال الخليل: الرقيب الحافظ.

وقال الخطابي: المهيمن ؛ الشهيد.

قال: وقال بعض أهل اللغة: الهيمنة ؛ القيام على الشيء والرعاية له ...

وهكذا القرآن ؛ فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بيانا وتفصيلا ، وبَيَّن الأدلة والبراهين على ذلك ، وقَرَّر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرَّر الشرائعَ الكلية التي بُعثت بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبَيَّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها ، وبَيَّن ما حُرِّف منها وبُدِّل ، وما فَعله أهلُ الكتابِ في الكتب المتقدمة ، وبَيَّن أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن ، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة ، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حُرِّف منها ، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه الله ، فهو شاهد في الخبريات ، حاكم في الأمريات.

وكذلك معنى الشهادة والحَكَم ؛ يتضمن إثبات ما أثبته الله من صِدْقٍ ومُحكَم ، وإبطال ما أبطله من كَذِبٍ ومنسوخ ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة ، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل ، بخلاف القرآن.

ثم إنه مُعجزٌ في نفسِهِ ، لا يَقدِرُ الخلائق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول ، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته ، وفيه ما جاء به الرسول ، وهو نفسه برهان على ما جاء به.

وفيه أيضا من ضربِ الأمثالِ وبيانِ الآياتِ على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جُمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن ، ومن تأمل ما تكلَّم به الأولون والآخِرون في أصول الدين والعلوم الإلٰهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها ؛ لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي – كالمتفلسفة وغيرهم – إلا بعض ما جاء به القرآن ، ولهذا لم تَحتَج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر فضلا عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره[1] ، سواء كان من عِلم المحدَّثين والملهمين ، أو من علم أرباب النظر والقياس ، الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء. انتهى باختصار.[2]

وقال ابن تيمية أيضا: وأما القرآن فإنه مُستَقلٌ بنفسه ، لم يُحْوِجْ أصحابه إلى كتابٍ آخر ، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن ، وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب ، فلهذا كان مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يقرر ما فيها من الحق ويُبطل ما حُرِّف منها ، وينسخ ما نسخه الله ، فيقرر الدين الحق ، وهو جمهور ما فيها[3] ، ويُبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها ، والقليل[4] الذي نسخ فيها ، فإن المنسوخ قليل جدا بالنسبة إلى المحكم المقرر. انتهى.[5]

---

[1] هكذا في المطبوع ، وأظنه خطأ مطبعي ، وصوابه: أو بغيره.

[2] «مجموع الفتاوى» (١٧/٤٣ – ٤٥).

[3] أي: هو غالب ما فيها.

[4] أي وينسخ القليل .

[5] «مجموع الفتاوى» (١٩/١٨٤ – ١٨٥).

قلت: ولما كان القرآن لا يصير منسوخا كله ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف ؛ صار مهيمناً على الكتب السابقة.

وقال ابن كثير رحمه الله في معنى وصف القرآن بالمهيمن: فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها ، وأشملها وأعظمها وأحكمُها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها ، وتكفَّل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.[1]

الخامس مما يتضمنه الإيمان بالكتب: الإيمان بأنها تدعو إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد بأنواعه الثلاثة ، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وأما الأحكام الشرعية التفصيلية فقد تتفق فيها الكتب من جهة العموم وتختلف من جهة التفصيل ، بحسب ما تقتضيه حكمة الله واختياره لما يناسب عباده الذين وُضِعت لهم تلك الشريعة ، كما قال تعالى ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾ ، وقال تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

فالأمر بالصلاة والصوم – مثلا – ثابت في جميع الشرائع ، ولكن كيفية الصلاة والصوم تختلف من شريعة لأخرى.

وكذلك الطيبات من الأطعمة –كمثال آخر – ، فإن الله قد أحلها لأمة محمد ﷺ ، في حين أنه حرَّم بعض الطيبات على بني إسرائيل بعدما كانت حلالا لهم ، حكمة منه سبحانه وتعالى

[1] انظر «نفسير القرآن العظيم» ، سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

واختيارا ، قال تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾.

وإلى هذا الاتفاق والاختلاف في الشرائع أشار النبي ﷺ بقوله: والأنبياء إخوةٌ لِعَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.[1]

فقوله (إخوةٌ لِعَلاَّت): كلمة (علاَّت) جمع (عَلَّة) ، وهي الضَّرَّة ، وهي المرأة يكون لزوجها امرأة أخرى ، وفي هذا الحديث شبَّهَ النبي ﷺ الأنبياء بالأبناء من أب واحد وأمهات شتى ، فالأمهات هن الشرائع وفيها يحصل الاختلاف ، والأب هو أصل الدين وهو عبادة الله وحده ، والدليل على هذا قول الله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ، وقال ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ، وقال الله لنبيه محمدا ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمٰن آلهة يُعبدون﴾.

وسيأتي قريبا إن شاء الله مزيد تفصيل لمواطن اتفاق الكتب السماوية واختلافها.

فصل في بيان أعظم الكتب

وأعظم الكتب هي القرآن والتوراة والإنجيل ، وكثيرا ما يجيء ذكرها في القرآن ، وكثيرا ما يقرن الله في القرآن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين.[2]

---

[1] رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في مقدمة تفسير سورة الإسراء.

وأعظم الكتب الثلاثة هو القرآن بلا شك ، ولهذا جعله الله مهيمنا على كل الكتب السماوية قبله كما تقدم ، وفيه من الإعجاز ما ليس في غيره من الكتب ، وسيأتي ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم في خاتمة مبحث الإيمان بالرسل لكونه من معجزات النبي محمد ﷺ .

فائدة في ميزة التوراة على الإنجيل

قال ابن كثير رحمه الله في خاتمة تفسير سورة الأحقاف ما محصَّلُهُ أن الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالت الجن عن القرآن إنه أُنزِل من بعد موسى ولم تقل إنه أنزل من بعد عيسى ، لأن التوراة التي أنزِلت على موسى هي الأصل.

فالحاصل أن العمدة في شريعة بني إسرائيل هو التوراة ، والإنجيل متمم له.

فصل في بيان مواطن اتفاق الكتب السماوية ومواطن اختلافها

الكتب السماوية قاطبة متفقة على أمور ومختلفة في أمور ، فأما مواطن الاتفاق فستة:

الأول: أن جميع الكتب دعت الى شيء واحد وهو عبادة الله وحده وترك عبادة من سواه ، سواء كانوا أصناما أو أشخاصا أو أنبياءً أو أحجارا أو غيرها.

فدين الأنبياء واحد بهذا الاعتبار ، وهو عبادة الله وحده.

الثاني: تتفق الكتب السماوية على وجوب الإيمان بأصول العقيدة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

الثالث: تتفق الكتب السماوية على وجوب التَّعبدُ للهِ تعالى بعبادات معينة ، وقد تشترك بعض الأمم في عبادات معينة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، ولكن تلك العبادات تختلف عن بعضها

في كيفية أدائها بحسب الناس الذين بُعِث إليهم ذلك النبي ، فبني إسرائيل مثلا أمرهم النبي موسى بالصلاة ، ثم لما بعث الله نبيه عيسى أمرهم بالصلاة أيضا ، ثم لما أرسل الله نبيه محمدا أمر الناس بالصلاة ، لكن كيفية الصلاة وتوقيتها يختلف من شريعة موسى إلى شريعة عيسى إلى شريعة محمد ، ولكنها في النهاية تشترك في كونها عبادة لله وحده ، ينبغي أن تؤدى على نحو ما ، بينه ذلك النبي لأتباعه.

ونفس الشيء يقال بالنسبة لعبادة الصوم وغيرها من العبادات.

قال تعالى مبينا اشتراك بعض الأمم في الصلاة والزكاة ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1] ، وقال تعالى في الصوم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[2] ، وقال لإبراهيم كما في سورة الحج ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا﴾[3].

الرابع: اتفاقها على الأمر بالعدلِ والقِسطِ ، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[4].

والأمر بالعدل مذكور في شريعة موسى وإبراهيم ، ومن أمثلة ذلك ألا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، قال تعالى ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى * ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾[5].

---

[1] سورة الأنبياء: ٧٣ .

[2] سورة البقرة: ١٨٣ .

[3] سورة الحج: ٢٧ .

[4] سورة الحديد: ٢٥ .

[5] سورة النجم: ٣٦ – ٣٨ .

الخامس: اتفاقها على الأمر بحفظ الضروريات الخمس ، وهي الدين والعقل والمال والعرض والنفس.

السادس: اتفاقها على الأمر بمحاسن الأخلاق والنهي عن قبيحها ، فتأمر مثلا ببر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الضيف والعطف على الفقراء والمساكين والقول الحسن ونحو ذلك ، كما أنها تنهى عن القبائح ، كالظلم والعدوان وعقوق الوالدين وانتهاك الأعراض والغيبة والكذب والسَّرقة وغير ذلك.

وأما مواطن الاختلاف بين الشرائع السماوية ففي أمرين ، وهذا الاختلاف من حكمة الله تعالى ليكون لكل أمة من الشرائع ما يناسب طبيعتها ، قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[1] ، وموطِنا الاختلاف هما:

الأول: كيفية العبادات المشتركة بين الشرائع ، فالصلاة كانت مفروضة في شريعة عيسى ، ولكنها تختلف في كيفيتها عن الصلاة المفروضة في شريعة محمد ﷺ ، وربما تتفق معها في بعض صورها ، كما قال النبي ﷺ : إنا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نُعجِّل إفطارنا ، ونؤخِّر سحورنا ، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة.[2]

وكذلك الصوم المفروض في شريعة من قبلنا ؛ تختلف كيفيته عن الصوم في شريعة محمد ﷺ ، فقد كان الإمساك في شريعة من قبلنا يبدأ إذا استيقظ الإنسان من نومه إذا نام في أي وقت من الليل ، أوله أو وسطه أو آخره ، ويمتد ذلك الإمساك إلى مغرب الليلة القابلة ، ثم جعل الله ابتداء الإمساك

[1] سورة المائدة: ٤٨ .

[2] رواه البيهقي (٢٣٨/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشار إلى ثبوته الألباني في «الصحيحة» (٣٧٥/٤).

في شريعة محمد ﷺ عند طلوع الفجر ، بدون اعتبار للنوم قبله ، وهذا من حكمة الله تعالى وتيسيره على هذه الأمة.

الثاني: الاختلاف في تشريع بعض الأحكام ، فقد يُحِل الله طعاما لأمة ، ويُحرِّمه على آخرين لحكمة يعلمها الله عز وجل ، قد نعلمها وقد لا نعلمها ، كما حرم الله على اليهود أنواعا من الأطعمة ، قال تعالى ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[1].

ثم في شريعة عيسى ﷺ أُحِلَّت تلك الأطعمة ، فقد قال عيسى لقومه ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾[2].

ثم جاءت شريعة محمد ﷺ ، فأَحلَّت الطيبات كافة وحَرَّمتِ الخبائث كافة.

فصل في بيان مواطن اتفاق الكتب السماوية ومواطن اختلافها

الكتب السماوية قاطبة متفقة على أمور ومختلفة في أمور ، فأما مواطن الاتفاق فستة:

الأول: أن جميع الكتب دعت الى شيء واحد وهو عبادة الله وحده وترك عبادة من سواه ، سواء كانوا أصناما أو أشخاصا أو أنبياءً أو أحجارا أو غيرها.

فدين الأنبياء واحد بهذا الاعتبار ، وهو عبادة الله وحده.

---

[1] سورة النساء: ١٤٦ .

[2] سورة آل عمران: ٥٠ .

الثاني: تتفق الكتب السماوية على وجوب الإيمان بأصول العقيدة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

الثالث: تتفق الكتب السماوية على وجوب التَّعبدُ للهِ تعالى بعبادات معينة ، وقد تشترك بعض الأمم في عبادات معينة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، ولكن تلك العبادات تختلف عن بعضها في كيفية أدائها بحسب الناس الذين بُعِث إليهم ذلك النبي ، فبني إسرائيل مثلا أمرهم النبي موسى بالصلاة ، ثم لما بعث الله نبيه عيسى أمرهم بالصلاة أيضا ، ثم لما أرسل الله نبيه محمدا أمر الناس بالصلاة ، لكن كيفية الصلاة وتوقيتها يختلف من شريعة موسى إلى شريعة عيسى إلى شريعة محمد ، ولكنها في النهاية تشترك في كونها عبادة لله وحده ، ينبغي أن تؤدى على نحو ما ، بينه ذلك النبي لأتباعه.

ونفس الشيء يقال بالنسبة لعبادة الصوم وغيرها من العبادات.

قال تعالى مبينا اشتراك بعض الأمم في الصلاة والزكاة ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1] ، وقال تعالى في الصوم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[2] ، وقال لإبراهيم كما في سورة الحج ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا﴾[3].

[1] سورة الأنبياء: ٧٣ .

[2] سورة البقرة: ١٨٣ .

[3] سورة الحج: ٢٧ .

الرابع: اتفاقها على الأمر بالعدلِ والقِسطِ ، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[1].

والأمر بالعدل مذكور في شريعة موسى وإبراهيم ، ومن أمثلة ذلك ألا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، قال تعالى ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى * ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾[2].

الخامس: اتفاقها على الأمر بحفظ الضروريات الخمس ، وهي الدين والعقل والمال والعرض والنفس.

السادس: اتفاقها على الأمر بمحاسن الأخلاق والنهي عن قبيحها ، فتأمر مثلا ببر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الضيف والعطف على الفقراء والمساكين والقول الحسن ونحو ذلك ، كما أنها تنهى عن القبائح ، كالظلم والعدوان وعقوق الوالدين وانتهاك الأعراض والغيبة والكذب والسَّرقة وغير ذلك.

وأما مواطن الاختلاف بين الشرائع السماوية ففي أمرين ، وهذا الاختلاف من حكمة الله تعالى ليكون لكل أمة من الشرائع ما يناسب طبيعتها ، قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[3] ، وموطِنا الاختلاف هما:

الأول: كيفية العبادات المشتركة بين الشرائع ، فالصلاة كانت مفروضة في شريعة عيسى ، ولكنها تختلف في كيفيتها عن الصلاة المفروضة في شريعة محمد ﷺ ، وربما تتفق معها في بعض صورها ،

---

[1] سورة الحديد: ٢٥ .

[2] سورة النجم: ٣٦ – ٣٨ .

[3] سورة المائدة: ٤٨ .

كما قال النبي ﷺ : إنا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نُعجِّل إفطارنا ، ونؤخِّر سحورنا ، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة.[1]

وكذلك الصوم المفروض في شريعة من قبلنا ؛ تختلف كيفيته عن الصوم في شريعة محمد ﷺ ، فقد كان الإمساك في شريعة من قبلنا يبدأ إذا استيقظ الإنسان من نومه إذا نام في أي وقت من الليل ، أوله أو وسطه أو آخره ، ويمتد ذلك الإمساك إلى مغرب الليلة القابلة ، ثم جعل الله ابتداء الإمساك في شريعة محمد ﷺ عند طلوع الفجر ، بدون اعتبار للنوم قبله ، وهذا من حكمة الله تعالى وتيسيره على هذه الأمة.

الثاني: الاختلاف في تشريع بعض الأحكام ، فقد يُحِل الله طعاما لأمة ، ويُحرِّمه على آخرين لحكمة يعلمها الله عز وجل ، قد نعلمها وقد لا نعلمها ، كما حرم الله على اليهود أنواعا من الأطعمة ، قال تعالى ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[2].

ثم في شريعة عيسى ﷺ أُحِلَّت تلك الأطعمة ، فقد قال عيسى لقومه ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾[3].

ثم جاءت شريعة محمد ﷺ ، فأَحلَّت الطيبات كافة وحَرَّمتِ الخبائث كافة.

الحكمة من إنزال القرآن[1]

[1] رواه البيهقي (٢٣٨/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشار إلى ثبوته الألباني في «الصحيحة» (٣٧٥/٤).

[2] سورة النساء: ١٤٦ .

[3] سورة آل عمران: ٥٠ .

بيَّن الله تعالى في كتابه العزيز الحكمة الكبرى من إنزال القرآن في قوله جل وعلا ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[٢] ، وقد بيَّن الله تعالى في آيات أخرى الحكمة من ذلك الإخراج وهي:

الأولى والثانية والثالثة: تدبُّر آياته وتذكُّر أولوا الألباب ومن ثَمَّ حصول التقوى ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك **ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾[٣] ، وقال تعالى ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرَّفنا فيه من الوعيد **لعلهم يتقون** أو يحدث لهم ذكرا﴾[٤].

الرابعة: البِشارة بالثواب للمتقين والإنذار بالعقاب لمن أعرض عنه ، قال تعالى ﴿فإنما يسرناه بلسانك **لتبشر** به المتقين **وتنذر** به قوما لُـدًّا﴾[٥].

الخامسة: تبيين الأحكام الشرعية للناس ، قال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الذكر **لتبين للناس ما نُزِّل إليهم** ولعلهم يتفكرون﴾[٦] ، وقال تعالى ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا **لتبين** لهم الذي اختلفوا فيه﴾[٧].

---

[١] استفدت هذا الفصل من «أضواء البيان» ، تفسير سورة ص ، قوله تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾.

[٢] سورة إبراهيم: ١ .

[٣] سورة ص: ٢٩ .

[٤] سورة طه: ١٣٣ .

[٥] سورة مريم: ٩٧ .

[٦] سورة النحل: ٤٤ .

[٧] سورة النحل: ٤٦ .

السادسة: تثبيت المؤمنين على الإيمان والهدى ، قال تعالى ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق **ليثبت الذين آمنوا** وهدى وبشرى للمسلمين﴾[1].

السابعة: الحُكم بين الناس به – أي بالقرآن – ، قال تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق **لتحكم بين الناس** بما أراك الله﴾[2] ، أي: بما علَّمك في هذا القرآن من العلوم.

تَـميُّـز القرآن العظيم عن غيره من الكتب السماوية

تميَّـز القرآن بخصائص عدة عن غيره من الكتب السماوية ، نذكر منها ثلاث خصائص:

١. أن فيه تبيانا لكل شيء ، كما قال تعالى ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾[3] ، وكما قال تعالى ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[4]، وقد بين جلال الدين السيوطي[5] رحمه الله ذلك التبيان في مقدمة كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل»[6] ، فقال ما ملخصه:

قد اشتمل كتاب الله على كل شيء. أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها.

---

[1] سورة النحل: ١٠٢ .

[2] سورة النساء: ١٠٥ .

[3] سورة النحل: ٨٩ .

[4] سورة الأنعام: ٣٨ .

[5] هو عبد الرحمٰن بن أبي بكر الخضيري السيوطي ، إمام حافظ مؤرخ أديب ، برز في جميع الفنون ، له نحو ٦٠٠ مصنف ، منها في في علوم القرآن «الإتقان في علوم القرآن» ، وله في التفسير «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ، وله في علوم الحديث «ألفية السيوطي في الحديث» ، وله في الحديث «الجامع الكبير» و «الجامع الصغير». توفي عام ٩١١ . انظر ترجمته في «البدر الطالع» للشوكاني ، و«الأعلام» للزركلي.

[6] هو من منشورات دار الأندلس الخضراء بجدة ، بتحقيق: د. عامر بن علي العراقي.

وفيه علم عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة; كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة، وإغراق قوم نوح، وقصة عاد وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم يونس، وإلياس، وأصحاب الرَّس، وقصة موسى في ولادته وفي إلقائه في اليم، وقتلِه القِبطي، ومسيره إلى مدين، وتزوجه ابنة شعيب، وكلام الله تعالى له بجانب الطور، وبعثه إلى فرعون، وخروجه من البحر وإغراق عدوه فرعون، وقصة العجل، وقصة القوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة، وقصة القِتال وذبح البقرة، وقصته في قتال الجبارين، وقصته مع الخضر، وقصة طالوت وداود مع جالوت وقتله، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبإ وفتنته، وقصة القوم الذين خرجوا فرارا من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في مجادلته قومه، ومناظرته النمروذ، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة الذَّبيح إسماعيل، وقصة يوسف، وقصة مريم وولادتها عيسى وإرساله ورفعِه، وقصة زكريا وابنه يحيى، وأيوب وذي الكِفل، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مطلع الشمس ومغربها وبنائه السَّد، وقصة أصحاب الكهف والرقيم، وقصة بُـخـتنصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليقطعُنَّ ثمار حديقتهم مبكِّرين في الصباح، فلا يَطْعَم منها غيرهم من المساكين ونحوهم، وقصة مؤمِن آل فرعون، وقصة أصحاب الفيل.

وفيه من شأن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – دعوة إبراهيم به[1]، وبِشارة عيسى بنبوته[2]، وبَـعثِه وهجرته[1].

[1] أي دعاء النبي إبراهيم – عليه السلام – أن يبعث في الأمة نبيا، فكان هو محمد صلى الله عليه وسلم.

[2] يوجد في التوراة والأناجيل المنتشرة بين اليهود والنصارى بشارات كثيرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن غزواته: غزوة بدر في «سورة الأنفال»، وأُحُد في «سورة آل عمران»، وغزوة الخندق في «سورة الأحزاب»، والنضير في «سورة الحشر»، والحديبية في «سورة الفتح»، وتبوك في «سورة براءة»، وحجة الوداع في «سورة المائدة»، ونكاحه زينب بنت جحش ، وتظاهُر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسِحر اليهود إياه.

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت وقبض الروح وما يُـفعل بها بعد صعودها إلى السماء، وفتح الباب للروح مؤمنة وإلقاء الروح الكافرة، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشراط الساعة الكبرى العشرة، وهي:
نزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، والدابة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وإغلاق باب التوبة، والخسف.

وأحوال البعث من نفخة الصور، والفزع، والصَّعق، والقيام، والحشر والنشر، وأهوال الموقف، وشدة حر الشمس، وظل العرش، والصراط، والميزان، والحوض، والحساب لقوم، ونجاة آخرين منه، وشهادة الأعضاء، وإيتاء الكُتب بالأيمان والشمائل وخلف الظهور، والشفاعة، والجنة وأبوابها، وما فيها من الأشجار والثمار والأنهار والحُـلِي والألوان والدرجات ورؤيته تعالى.
والنار وما فيها من الأودية، وأنواع العقاب، وألوان العذاب، والزقوم والحميم، إلى غير ذلك مما لو بُسِط جاء في مجلدات.

وفي القرآن جميع أسمائه تعالى الحسنى، وفيه من أسماء النبي – صلى الله عليه وسلم – جملةً[٢].

---

[١] أي هجرته من مكة إلى المدينة فرارا بدينه لما ضيَّق عليه قومه وحالوا دونه ودون نشر الإسلام في مكة.
[٢] أي مجموعة من الأسماء، كأحمد والسراج المنير ونحو ذلك.

وفيه شعب الإيمان البضع والسبعون.

وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمس عشرة.

وفيه ذكر أنواع الذنوب الكبائر وكثير من الذنوب الصغائر.

وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم.

هذه جملة القول في ذلك.

انتهى باختصار يسير وتصرف من كلام السيوطي رحمه الله في مقدمة كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل».

***

٢. ومن خصائص القرآن أنه كتاب هداية **للناس كافة** ، بخلاف الكتب الأخرى ، فإنها كانت تصلح لناس دون آخرين ، حكمة منه جل وعلا ، كما جاء في القرآن ذكرُ المصالح التي يحتاجها البشر وتدور عليها الشرائع ، وفيه حلول المشاكل العالمية ، انظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في تفسير قوله تعالى ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[١]، فقد تكلم عليه في نحو من خمس وخمسين صفحة.

***

٣. ومن أعظم خصائص القرآن العظيم أنه محفوظ من التغيير والتبديل والتحريف على مر الدهور والعصور إلى نهاية العالم ، فقد تعهَّد الله بحفظه كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

[١] سورة الإسراء: ٩ .

لَحَافِظُون﴾[1] ، أي: إن الله نزل الذِّكر وهو القرآن ، ثم حَفِظه ، وطريقة حفظه على مدى العصور الماضية كانت كالتالي:

بعد إنزال القرآن على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن طريق المَلَك جبريل ؛ حفظه النبيُّ في قلبه ، ثم قرأه على أصحابه فحفظوه في صدورهم وكتبوه على الألواح ، وكان عدد أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ألوفا ، ثم تتابع الناس في الآفاق على حفظ القرآن بعد الصحابة ولم يفرطوا فيه ، جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وكان حِفظهم متطابقا ، ولا يزال متطابقا ، لا يختلف حرفا واحدا ، فبهذا حفِظ الله ألفاظ القرآن من التغيير والزيادة والنقص ، وحفِظ معانيه من التبديل ، فلا يوجد في القرآن مؤلف مجهول ، لأن الكلام كلام الله ، لم يتدخل فيه أحدٌ بتأليف أو تحريف ، كما لا يوجد في القرآن جزء مفقود أو تناقض بين الآيات أو سقط في بعض الآيات ، ولم يتجرَّأ أحدٌ على مر التاريخ على تحريف معنًى من معانيه إلا وقَيَّض الله له من يرد عليه ، ويكشف كذبه وزوره وبهتانه ، ويُبَيِّن الحق المُبين ، وهذا من أعظم آيات الله على أنه كتاب منزل ، ومن أعظم نعمه على عباده المؤمنين إلى نهاية الدنيا.

فإن قيل: وما هي الدلائل على أن القرآن محفوظ لم يتعرض للتحريف؟

فالجواب على ذلك من وجوه:

- أن البشر كلهم ما استطاعوا أن يأتوا بآية مثل آية واحدة في القرآن في بلاغته وحسن كلامه، ولو أنه تعرض للتحريف لاتضح هذا في سياق القرآن، لأن أسلوب كلام البشر مختلف عن أسلوب كلام الرب.

[1] سورة الحِجْر: ٩ .

- ثم إن القرآن متميزٌ في نظمه وأسلوبه عن كلام البشر، وقد حاول أناس على مر التاريخ إدخال تحريفات في القرآن فانكشفوا وذهبت جهودهم.
- ثم إن القرآن محفوظ في الصدور علاوة على كونه محفوظا في القراطيس، فإن ملايين البشر يحفظونه في آن واحد على مر الأزمان، ومن المعلوم أن ما كان في الصدور فلا يمكن تحريفه.
- كذلك فإن التاريخ يشهد بأن القرآن لم يتعرض قط للتحريف، ولو أنه تعرض للتحريف لذكره المؤرخون وأتوا بإثباتات، لاسيما مع وجود أعداء للقرآن على مر التاريخ.

فلم يُذكر قط في التاريخ أن المسلمين اختلفوا في سورة أو آية أو كلمة واحدة أو حتى حرف واحد من القرآن، هل هو من القرآن أم مُدخلٌ عليه.

بل التاريخ يشهد على ثبوت النص القرآني كما هو على مر العصور والقرون، وفي مختلف بقاع الدنيا، شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا.

- ومما يدل على حفظ القرآن أن القارئ الكريم لو أتى بنسخة من القرآن وقارنها بنسخة أخرى في أمريكا، وبنسخة ثالثة في الصين، ونسخة رابعة في الهند، لوجد بأمِّ عينيه أن هذه النسخ متطابقة، ليس فيها اختلاف بحرف واحد، فهذا دليل مادي حِسِّي على حفظ القرآن.
- ثم إن النسخة الأصلية من القرآن محفوظة منذ أربعة عشر قرنا، وهي موجودة في متحف في اسطنبول بتركيا، وجميع النسخ المطبوعة في العالم هي مقابلة بتلك النسخة.

- فالحاصل أن القرآن هو هو كما أُنـزِل قبل أربعة عشر عاما، لا يتعرض لتحديث revision ، كما هو الحال في الكتب الأخرى التي يُحدِّثها البشر، ثم يقولون إنها من عند الرب، وإنها كلامه!

- وبهذا تتضح قدرة الرب سبحانه وتعالى في حفظ القرآن ، مقارنة بقدرة البشر على حفظ غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل ، فالنص القرآني محفوظ كما هو منذ أنزل ، والتاريخ شاهد بذلك ، لأن الله تكفل بحفظه ، بينما النصوص الأصلية لجميع الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل غير محفوظة ، والتاريخ شاهد بذلك ، مع أنهما أقرب كتابين للقرآن من الناحية الزمانية، والسبب في ذلك أن الأحبار والرهبان لم يحفظوها ، فالإنجيل **الأصلي** «الكتاب المقدس» الذي كان بيد المسيح عيسى ابن مريم والحواريين تعرض للضياع، فليس له وجود الآن ، وحَلَّ مكانه أربعة أناجيل كتبها أربعة أشخاص (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) ، وملحقٌ بها ثلاثة وعشرون رسالة ، كلها قد أُلِّفت بعد رفع المسيح، فيكون المجموع سبعة وعشرين سفرا، وقد بدأ تدوين تلك الأناجيل الأربعة من سنة ٣٧ م إلى سنة ١١٠م، وهؤلاء الأربعة لم يثبت أن التقوا بالمسيح ولو للحظة واحدة ، بل كتبوها بعد رفعه إلى السماء ، وبينها من التناقض والاختلاف الشيء الكثير.

ليس هذا فحسب، بل الأناجيل الأربعة المذكورة هي المعتمدة في المسيحية المعاصرة، وأما الثلاثة والعشرون رسالة فغير معتمدة!

وإذا أُضيفت أسفار العهد القديم الستة وأربعين (المكونة من التوراة وغيرها) إلى أسفار العهد الجديد (الإنجيل) السبعة وعشرين صار مجموع الأسفار ثلاثة وسبعين ، يؤمن البروتستانت بستة وستين منها ، ولا يؤمنون بالبقية ، بينما يؤمن الأرثودكس والكاثوليك بها كلها.

- ومما يدل بوضوح على تحريف رجال الدين المسيحيين للإنجيل أن هذه الأناجيل الأربعة يتم تحديثها بشكل مستمر مِن قِبَل متخصصين في الأناجيل ، حيث يكتشف هؤلاء المتخصصون من وقت لآخر أن هناك عبارات مقحمة في النص الأصلي منها ، فيُخرجون نسخة جديدة من الأناجيل revision ، ويقولون إنها منقحة من تلك العبارات المُقحمة في النص ، أليس هذا دليلا واضحا على تلاعبهم بها؟
- فبهذا يتبين لنا بوضوح أن الرجوع إلى هذه الكتب التي تسمى أناجيل والاعتماد عليها لمعرفة رسالة المسيح عيسى ابن مريم الأصلية خطأ فادح ، لأنه رجوع إلى كلام البشر الذي يعتريه الصواب والخطأ ، فهي مثل كتب التاريخ ونحوها ، وكتب القصص والحكايات ، التي تؤلف بعد مرور فترة من الزمن على الأحداث التي تكلموا عنها ، فيكون فيها الصح والخطأ ، والاختلاف والاضطراب ، وليس رجوعا إلى كتاب الله المقدس ((الإنجيل الأصلي)) الذي أنزله الله على المسيح عيسى ابن مريم ، ولو أن هذه الأناجيل التي يتداولها النصارى ((المسيحيون)) هي فعلا الإنجيل الأصلي لَمَا تعددت ولَمَا تناقضت فيما بينها ، لأنه من المعلوم قطعا أن الإنجيل الذي كان بيد المسيح إنما هو كتاب واحد ، وكذلك الأمر يقال

بالنسبة للتوراة، وهذا مِصداق قول الله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[1].

- فبناء على هذا فلا يستطيع باحث أو عالم منصف أن يقول إن الأناجيل الأربعة محفوظة كما هي كما كتبها مؤلفوها ، فضلا عن أن يقولوا إنها – أو واحد منها – تُمَثِّل النص الأصلي للإنجيل الذي أنزله الله على المسيح ، وكان بيد المسيح والحواريين.
- ولكن الله رحيم بعباده ، لم يترك الناس هكذا بلا كتاب هداية وإرشاد ، فقد أنعم على الناس كلهم بكتاب خالد وهو القرآن ، فيه هدى ونور ، وحَـفِـظَـهُ على هيئته كمـــا هو غضا طريا، وسيبقى محفوظا إلى نهاية الدنيا ، كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ ، وجعله صالحا لكل زمان ومكان ، ولجميع أصناف البشر[2] ، فبهذا تم وعد الله بحفظ القرآن ليكون كتاب هداية للناس كلهـم ، بني إسرائيل وغير بني إسرائيل ، الأبيض والأسود ، العرب والعجم ، الإنس والجن ، إلى نهاية هذا العالم ، وتضمن هذا القرآن شريعة الإسلام التي هي خاتمة الشرائع.
- وفيما يلي قصة لطيفة من التاريخ تثبت حفظ القرآن على مر العصور والدهور، وقد حصلت لأحد خلفاء المسلمين كان يسمى المأمون ، دخل عليه في مجلسه رجل يهودي حسن الثوب

[1] سورة النساء: ٨٢ .

[2] بإمكان القارئ الكريم تصفح القرآن من خلال هذا الموقع www.quran.ksu.edu.sa

حسن الوجه طيب الرائحة ، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، فلما انتهى المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟

فقال: نعم.

فقال له: أسلِم حتى أفعل بك وأصنع ، أي يعطيه مالا ونحو ذلك.

فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

يعني لن أترك ديني ودين آبائي.

فلما كان بعد سنة جاء اليهودي مسلما إلى مجلس المأمون ، فتكلم في أمور الدين الإسلامي فأحسن الكلام ، فلما انتهى المجلس دعاه المأمون فقال له: ألست صاحبنا بالأمس؟

فقال: بلى.

قال: فما كان سبب إسلامك؟

قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، فعمدت إلى التوراة فكتبتُ ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُرِيت مني.

وعمدت إلى الإنجيل فكتبتُ ثلاث نسخ فزدتُ فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشتُرِيت مني.

وعمدت إلى القرآن فعمِلت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها على الورَّاقين (هم الذين يكتبون الكتب ويبيعونها ، قبل وجود المطابع) فتصفحوها ، فلما وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ، فعلِمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي.

انتهت القصة.

فصل في بيان الأدلة القرآنية على تحريف الأحبار والرهبان للتوراة والإنجيل

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى في سورة المائدة عند ذكر حال الأحبار والرهبان مع الكتب المنزلة إليهم وتفريطهم في حفظها ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾[1] ، قال رحمه الله:

أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأحبار والرهبان استُحفظوا كتاب الله يعني استُودعوه ، وطُلب منهم حفظه ، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفِظوه ، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه ، ولكنه بيَّن في مواضع أخر أنهم لم يمتثلوا الأمر ، ولم يحفظوا ما استُحفظوه ، بل حرَّفوه وبدلوه عمداً ، كقوله ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ الآية ، وقوله ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ الآية ، وقوله ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ ، وقوله ﴿فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾ الآية ، وقوله جل وعلا ﴿وإنَّ منهم فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات ...

ثم قال رحمه الله: والقرآن العظيم لم يكِلِ الله حفظه إلى أحد حتى يُمْكِنه تضييعَه ، بل تولى حِفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة ، كما أوضحه بقوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وقوله ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات. انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «إغاثة اللهفان»:

ثم بعث الله سبحانه عبدَه ورسولَه وكلمتَه المسيح ابنَ مريم ، فجدَّد لهم الدين ، وبيَّن لهم معالمه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، والتبرِّي[2] من تلك الأحداث والآراء الباطلة ، فعادوه وكذبوه ، ورموه

[1] سورة المائدة: ٤٤ .

[2] أي التبرؤ.

وأمه بالعظائم ، وراموا[1] قتله ، فطهَّره الله تعالى منهم ، ورفعه إليه فلم يصِلوا إليه بسوء ، وأقام الله تعالى للمسيح أنصارا دعوا إلى دينه وشريعته ، حتى ظهر دينُه على من خالفه ، ودخل فيه الملوك ، وانتشرت دعوته ، واستقام الأمر على السَّداد بعده نحو ثلثمئة سنة.

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء ، بل ركَّبوا دينا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبَّاد الأصنام ، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية ، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها ، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

هذا ومعهم بقايا من دين المسيح ، كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرَّمته التوراة إلا ما أُحِل لهم بنصها ، **ثم تناسخت الشريعة** إلى أن استحلُّوا الخنزير وأحلُّوا السبت وعوَّضوا منه يوم الأحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة ، وكان المسيح يُصلي إلى بيت المقدس فصلُّوا هم إلى المشرق ، ولم يُعظِّم المسيح عليه السلام صليبا قط ، فعظَّموا هم الصليب وعبدوه ، ولم يصُم المسيح عليه السلام صومَهم هذا أبدا ولا شرَعه ولا أمر به البتة ، بل هم وضعوه على هذا العدد ونقلوه إلى زمن الربيع ، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عِوضا عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية ، وتعبدوا بالنجاسات وكان المسيح عليه السلام في غاية الطهارة والطيب والنظافة وأبعد الخلق عن النجاسة ، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم ،

[1] أي: قصَدوا.

فغيروا دين المسيح وتقربوا إلى الفلاسفة عباد الأصنام بأن وافقوهم في بعض الأمر ليُرضوهم به وليستنصروا بذلك على اليهود. انتهى كلامه رحمه الله.[1]

تنبيه مهم

- ومع ذلك التحريف والتبديل الذي تعرضت له التوراة والإنجيل ؛ فإنه لا زال في التوراة والأناجيل المتوافرة بأيدي اليهود والنصارى الآن شيئا من الحق الذي جاء به موسى والمسيح ، وشهِد له القرآن أيضا ، كنبوة محمد[2] ﷺ ، وبشرية عيسى ﷺ ، ووجوب إفراد الله بالعبادة ، نذكر هذا من باب الإنصاف، لأن الله أمر المسلمين بالإنصاف كما في قوله تعالى ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

وجوه إعجاز القرآن

---

[1] «إغاثة اللهفان» (٢/٢٧٠) ، تحقيق الفقي.

قلت: وقد أَلَّف بعض علماء الإسلام كتبا في تحريف الكتب السابقة ، كما أُلِّفت بعض الرسائل العلمية في ذلك ، منها:

١. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٢. مصادر النصرانية – دراسة ونقدا ، عبد الرزاق بن عبد المجيد الأرو ، الناشر: دار التوحيد للنشر – الرياض
٣. تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ – أسبابه ونتائجه ، تأليف: بسمة جستنيه
٤. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ، تأليف: القاضي أبي البقاء صالح بن الحسين ، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض
٥. النصرانية – الأصل والواقع ، تأليف: د. محمد السحيم ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
٦. الأسفار المقدسة قبل الإسلام – دراسة لجوانب الاعتقاد في اليهودية والمسيحية ، تأليف: د. صابر طعيمة ، الناشر: عالم الكتب – لبنان

[2] انظر كتاب «البشارات العجاب في صحف أهل الكتاب» (٩٩ دليلا على وجود النبي المبشر به في التوراة والإنجيل) ، تأليف د. صلاح الراشد ، الناشر: دار ابن حزم – بيروت.

القرآن الكريم مُعجِزٌ في ذاته من تسعة وجوه[1]:

الأول: بيانه وفصاحته ، فالقرآن الكريم نزل على العرب بلغتهم ، وفي زمان بلغوا فيه الذَّرْوَةَ في الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن نظم الشعر ، فظنوا في أول الأمر أنهم يستطيعون الإتيان بمثله فقالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[2] ، فنزل القرآن بتحديهم على ثلاثة مراحل ؛ الأولى أن يأتوا بمثله[3] ، والثانية أن يأتوا بعشر سور مثله[4]، والثالثة أن يأتوا بسورة مثله[5] ، فعجِزوا مع شدة حرصهم على مغالبة القرآن وقوة فصاحتهم ، فقطع الله طمعهم إلى قيام الساعة في قوله تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[6].[7]

قال ابن تيمية رحمه الله:

والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول ، تُتلى آيات التحدي به ويتلى قوله ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾ و ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله﴾ و ﴿بسورةٍ مثله وادعوا من

---

[1] قولي إنها تسعة ليس على سبيل التحديد ، ولكن بحسب ما يسر الله الوقوف عليه ، وربما كانت هناك وجوه أخرى ، فالله تعالى أعلم ، وانظر للاطلاع وجوه إعجاز القرآن الكريم العشرة كما ذكرها القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: ذكر نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها.

[2] سورة الأنفال: ٣١ .

[3] سورة الطور: ٣٣ – ٣٤ .

[4] سورة هود: ١٣ .

[5] سورة البقرة: ٢٣ .

[6] سورة الإسراء: ٨٨ .

[7] وانظر أيضا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ (سورة يونس: ٣٧).

استطعتم من دون الله﴾ ، ويُتلى قوله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾ ، فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر[1] وقطعِه بذلك مع علمه بكثرة الخلق دليل على أنه كان خارقاً يُعجز الثَّقَـلين[2] عن معارضته ، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

ثم مع طول الزمان قد سمِعه الموافق والمخالِف ، والعرب والعجم ، وليس في الأمم من أظهرَ كتاباً يقرأه الناس وقال إنه مثله ، وهذا يعرفه كل أحد ، وما من كلام تكلم به الناس – وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى – إلا وقد قال الناس نظيرَه وما يشبهه ويقاربه ، سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاماً في العلوم والحكم والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك ، وما وُجِد من ذلك شيء إلا وَوُجِد ما يُشبهه ويُقاربه.

والقرآن مِما يَعلم الناس عربهم وعـجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته ، فلفظُه آية ، ونظمُه آية ، وإخبارُه بالغيوب آية ، وأمرُه ونهيُه آية ، ووعدُه ووعيدُه آية ، وجلالتُه وعظمتُه وسلطانُه على القلوب آية ، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم.[3]

قال مقيده عفا الله عنه:

تحدى الله في خمس آيات من القرآن جميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة منه أو آية منه فما استطاعوا ، وهي:

---

[1] أي في أول أمر نبوته.

[2] الثَّـقَـلين هما الإنس والجن.

[3] كتاب «النبوات» ، ص ٥١٥ – ٥١٧ .

١. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن **مِّثْلِهِ** وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

وإن كنتم في شَكٍّ من القرآن الذي نَزَّلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتزعمون أنه ليس من عند الله، فهاتوا سورة تماثل سورة من القرآن، واستعينوا بمن تقدرون عليه مِن أعوانكم، إن كنتم صادقين في دعواكم.

٢. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

أم يقول الكفار الذين لا يؤمنون بأن القرآن من عند الله: إن هذا القرآن افتراه محمد من عند نفسه؟ فقل لهم أيها الرسول: فأتوا أنتم بسورة واحدة من جنس هذا القرآن في نظمه وهدايته، واستعينوا على ذلك بكل مَن قَدَرْتم عليه من دون الله من إنس وجن، إن كنتم صادقين في دعواكم.

بل سارَعوا إلى التكذيب بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته، وكفروا بما لم يحيطوا بعلمه من ذكر البعث والجزاء والجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي لم يأتهم بعدُ حقيقة ما وُعِدوا به في الكتاب.

وكما كذَّب المشركون بوعيد الله كذَّبت الأمم التي خلت قبلهم، فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة الظالمين، فقد أهلك الله بعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وبعضهم بغير ذلك.

٣. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ **مِّثْلِهِ** مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

بل يقول هؤلاء المشركون من أهل "مكة": إن محمدًا قد افترى هذا القرآن، فقل لهم: إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، إن كنتم صادقين في دعواكم.

٤. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا **بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ** لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

قل يا محمد للذين لا يؤمنون بأن القرآن كلام الله: لو اتفقت الإنس والجن على محاولة الإتيان بمثل هذا القرآن المعجز لا يستطيعون الإتيان به، ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك.

٥. ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ **مِّثْلِهِ** إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

أم يقول هؤلاء المشركون إن محمدا اختلق القرآن من تلقاء نفسه؟

بل هم لا يؤمنون، فلو آمنوا لم يقولوا ما قالوه. فليأتوا بكلام مثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم أن محمدًا اختلقه من عنده.

٦. ﴿وَمَا كَانَ **هَٰذَا الْقُرْآنُ** أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

وما كان يتهيَّأ لأحد أن يأتي بهذا القرآن مِن عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق، وفي هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا شك في أن هذا القرآن موحىً من رب العالمين.

فائدة – التوراة والإنجيل لا يُجزم بأنها معجزة في لفظِها

لا يُجزم بأن التوراة والإنجيل مُعجزة من حيث اللفظ والنَّظم كالقرآن ، فهذا يرجع إلى اللغة التي أنزِل بها وهي العبرانية ، وإنما هي مُعجزة لما تضمنته من المعاني ، كالإخبار عن الغيوب ، وما فيها من الهدى والنور ، وما فيها من الإخبار بنبوة محمد ﷺ .[1]

الوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن: أنه ليس فيه عوج لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، قال الشنقيطي رحمه الله في تعليق له على قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾:

أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً كائناً ما كان ، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، فألفاظه في غاية الإعجاز والسلامة من العيوب والوصمات ، ومعانيه كلها في غاية الكمال ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام.[2]

ثالثا: حِفظه من التحريف على مر العصور والدهور ، ووجه الإعجاز أنه لم يُحفظ كتابٌ من الكتب السماوية كما حُفِظَ هذا الكتاب ، وصدق الله ﴿إنا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون﴾[3].

---

[1] انظر كتاب «النبوات» (٥١٩).

[2] «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ١٨ .

[3] سورة الحجر: ٩ .

رابعا: حُسْنُ ما تضمنه القرآن من تشريعات وأحكام ، تصلح لجميع البشر ولجميع الأزمنة والأمكنة ، وتشمل جميع ما يصلح العباد في دنياهم وآخرتهم ، في العقيدة والشريعة والآداب والاقتصاد والسياسة وغيرها ، وجعله مستغنٍ عن غيره من القوانين والدساتير.

خامسا: صِدقُ الأخبار التي تضمنها ، سواء التي مضت ، أو التي تحصل تَبَعًا مع مرور الزمن أثناء تَنَزُّل القرآن ، أو الآيات التي فيها ذكر بعض الأمور المستقبلية ، **فأما الأخبار التي مضت** فهي كالإخبار عن خلق السماوات والأرض ، وقصة آدم وإبليس ، ثم قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة أصحاب الكهف وذي القرنين ، وغيرها ، جاءت كل هذه الأخبار على لسان نبي أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

وتَضَمَّن القرآن كذلك ذكر بعض الأحكام الواردة في التوراة ، وبيان كتمان أحبار اليهود لها ، حتى تحداهم القرآن بقوله ﴿قل فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين﴾[1].

وأما الآيات التي نزلت تَبَعًا مع التنزيل فكالآيات التي نزلت لكشف أحوال المنافقين ، والآيات التي فيها إجابة على أسئلة ، كالآيات التي تَصَدَّرها قولُه ﴿ويسألونك﴾ ونحوها﴾ ، وكذا المواقف التي كشفت عن صدق الله وعدِه لنبيِّـه بالنصر في الحروب ، وغير ذلك.

وأما الآيات التي فيها أخبار ما سيأتي في المستقبل فوقعت مطابقة لما أخبر فكدخول الـمسجد الحرام ، وهي في آخر سورة الفتح.

وأيضا قوله تعالى ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[2] ، فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن عمر لما نزلت هذه الآية قال: أيُّ جمعٍ يُهزم؟

---

[1] سورة آل عمران: ٩٣ .

[2] سورة القمر: ٤٥ .

فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يَثِبُ في الدِّرع ويقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.
وفي رواية لابن أبي حاتم: فعرفتُ تأويلها يومئذ.
وكذلك الآيات التي فيها تقرير عجز الناس عن أن يأتوا بآية مثل آيات القرآن ، فعجز الناس فعلا ، وكالآيات التي تقرر حفظ الله لكتابه ، كقوله تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ، فوقع الأمر كما أخبر ، فكم من ملحدٍ حاول ثم نكص على عقبيه ، وكالآيات التي تقرر حصول العزة والكرامة والسيادة والظهور للأمة الإسلامية إن استقامت على أمر الله ، فوقع الأمر كما أخبر الله في القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾[1] ، ثم لما فشا فيهم الشرك والبدع ، والبعد عن منهج السلف الصالح في العقيدة والشريعة والسلوك ؛ صاروا في ذيل الأمم ، وتسلطت عليهم الأمم الأخرى ، واحتلوا بلادهم قرونا من الزمن[2].
ومن دلائل صدق القرآن ما جاء فيه من ذكر بعض الأمور العلمية ، ثم لما ظهرت الاكتشافات العلمية الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر ، فمراحل تكوين الإنسان في بطن أمه – مثلا – قد تحدث

[1] سورة النور: ٥٥ .

[2] تعمدت هنا ذكر جملة (واحتلوا بلادهم قرونا) بدل (واستعمروا بلادهم قرونا) ، والفضل في هذا الاختيار يعود للعلامة السلفي محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله ، فقد انتقد كلمة (الاستعمار) ، فقال ما معناه إن مادة هذه الكلمة هي (العمارة) ، ومن مشتقاتها التعمير والعمران ، كما قال الله تعالى ﴿هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ ، والذي وقع من الإفرنج في تلك الحقبة الزمنية هو الخراب لا العمران ، فإنهم خرّبوا الأوطان والأديان والعقول والأفكار والمقومات ، وتركوا آثارا وبصمات سيئة بعد انسحابهم من البلاد التي احتلوا وهيمنوا عليها ، ومع الأسف فالمصطلح المستعمل بين المسلمين بعد انسحابهم وإلى الآن هو الاستعمار ، وهذا خطأ لفظي واضح.
انظر «آثار الإبراهيمي» (٣/٥٠٦ – ٥٠٧).

عنه القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، بينما لم يَهتدِ علماءُ الطب إلى مراحل ذلك التكوين إلا في العقود المتأخرة من هذا الزمان.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم بين أن حياة الإنسان تمر **بأربعة** مراحل ، فقال تعالى في مطلع سورة المؤمنون:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾.

فالمرحلة الأولى هي أصل الخلقة ، لما خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طين ، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾.

المرحلة الثانية هي مرحلة تكون الإنسان في بطن أمه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى المراحل التدريجية لتكون الإنسان في بطن أمه ، وهي خمسة مراحل ؛ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظام ثم لحم فوق العظام.

فقوله: (خلقنا النطفة علقة) أي دمًا أحمر.

وبعد أربعين يومًا تتحول العلقة إلى مضغة ، أي قطعة لحم قَدْر المضغة التي يمضغها الإنسان في فمه.

ثم تتحول المضغة اللينة وتتحول خلقتها إلى عظام.

ثم تُكسى العظام لحمًا ، ثم يُنشؤه الله خلقًا آخر بنفخ الروح فيه.

فتبارك الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

والشاهد من هذا السَّرد لمراحل خلق الإنسان أن علم الطب الجديد اكتشف هذه المراحل كلها ، ثم تفاجأ بأنه هذه المراحل مذكورة في القرآن منذ أربعة عشر قرنا ، فاستـدلوا من هذا على أن القرآن كلام الله ، لا يمكن أن يكون الذي أتى به بشر ، فسبحان من بهر بحكمته العقول.

وكذا الأمر بالنسبة لتكوين البحار والجبال وغيرها ، فقد جاء ذكر تكوينها الطبيعي في القرآن ، وبعد ظهور المكتشفات الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر به.

وقد أُلِّفَت في مطابقة الاكتشافات العلمية لما جاء به القرآن مؤلفات كثيرة ، وأسلم بسبب هذا التطابق عددٌ ليس بالقليل من علماء الطبيعة ، ومن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

سادسا: ومن دلائل إعجاز القرآن تنوُّع العلوم التي احتواها ، فعلاوة على أن القرآن الكريم قد قرر العقيدة الصحيحة فيما يتعلق بصفات الله تعالى وأحقيته بالعبادة ، وهَدَمَ أساطير الخرافة والتعلق بالمخلوقات ؛ فإنه لم يقتصر على هذا ، فقد اغترف منه علماء النحو والبلاغة واللغة الشيء الكثير ، بل هو المعيار الأساس لضبط علومِهم.

فتنوُّع العلوم هذه كلها تدل على أن النبي ﷺ صادق فيما يُبَلِّـغُه عن ربه ، فإنه من المستقر المعلوم عند قومه أنه أُمِّيٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، فمن أين سيأتي بكل هذه الأخبار القرآنية لولا أنه يُوحى إليه من ربه؟ قال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بها إلا المبطلون﴾[1].

[1] سورة العنكبوت: ٤٨ – ٤٩ .

سابعا: ومن وجوه إعجاز القرآن تأثيره البليغ في النفوس ، سواء كانت نفوسا مؤمنة أو كافرة ، وصدق الله ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾[1] ، وقوله ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[2].

وقد تأثر بالقرآن بعض صناديد الكفر من قريش ، ومن ذلك قصة الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن ، فقد روى ابن جرير في «تفسيره»[3] والحاكم في «مستدركه»[4] واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمْ ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا.

قال: لِمَ؟

قال: ليعطوكَهُ ، فإنك أتيت محمدا لتَعرِض لما قِبَلَه.[5]

قال: قد علِمَت قريش أني من أكثرها مالا.

قال: فقُل فيه قولا يبلُغ قومك أنك منكرٌ له ، أو أنك كارهٌ له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برَجزٍ ولا بقصيدةٍ مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يُشبه الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لِقوله الذي يقول حلاوة ،

---

[1] سورة الحشر: ٢١ .

[2] سورة الزمر: ٢٣ .

[3] تفسير سورة المدثر ، الآيات ١٨ – ٢٥ .

[4] (٥٠٧/٢).

[5] أي لتعرض نفسك لما عنده من مال ، يريدون أنه طمِع بما عنده ، فلهذا ذهب إليه.

وإن عليه لطُلاوة[1] ، وأنه لمثمرٌ أعلاه ، مُغدِقٌ[2] أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلى ، وإنه لَيَحْطِمُ ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعْني حتى أفكر.

فلما فكَّر قال: هذا سحر يؤثر ، يأثِره عن غيره[3] ، فنزلت ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾[4].

وأخرج ابن إسحاق في السيرة[5] والبيهقي في «الدلائل»[6] واللفظ له عن الزهري قال: حُدِّثتُ أن أبا أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شُريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه ، وكُـلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتُوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: (لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا) ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم

---

[1] أي رونقا وحسنا ، وقد تفتح الطاء. انظر «النهاية».

[2] الغدَق هو الماء الكثير ، وفي التنزيل ﴿لأسقيناهم ماء غدقا﴾ ، والمقصود بالمُغدق في الكلام هنا هو كثرة خيره. انظر «لسان العرب».

[3] أي يرويه عن غيره.

[4] سورة المدثر: ١١ .

[5] كتاب «السيرة» ، ص (١٦٩) ، تحقيق محمد حميد الله.

[6] باب جماع أبواب المبعث (٢٠٦/٢).

الطريق ، فقالوا: (لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود) ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

فقال: يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا ، والذي حلفتَ به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفَرَسَيْ رِهان ؛ قالوا: (منا نبي يأتيه الوحي من السماء!) ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس بن شريق. انتهى.

ولما سمع جُبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[1] ، وكان جبير يومئذ مشركًا ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.[2]

[1] سورة الطور: ٣٥ – ٣٧ .

[2] رواه البخاري مفرقا ، (٤٨٥٣ ، ٤٠٢٣).

ولما كان القرآن يتصف بهذا التأثير البليغ في النفوس ؛ تعاهد الكفار ألا يستمعوا للقرآن ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[1] ، وما ذاك إلا لتأثيره في نفوسِهم ، وإحساسهم به في أعماقهم ، ولكنهم قوم يستكبرون عن سماع الحق.

وقد أثّر القرآن في بعض النصارى فآمنوا به ، قال تعالى عنهم ﴿وإذا سمعوا ما أُنــزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبا مع الشاهدين﴾[2].

أما المؤمنون فتأثير القرآن فيهم واضح ، قال تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾[3] ، والكلام في هذا يطول ، وهو موجود في مظانه ، ويكفي في هذا ما ذكره جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»[4] أن جماعةً ماتوا عند سماع آيات من كتاب الله ، وقد أفرَدَ أسمائهم في مصنف.

ثامنا: ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم كونه شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية (أي النفسية) ، فأما الأمراض الحسية فقد حذر القرآن من جملة من المطعومات والمشروبات والسلوكيات على سبيل الوقاية من الأمراض ، ومن ذلك تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وارتكاب الزنا واللواط ، وكذا إتيان النساء في فترة المحيض.

وأما إذا أُصِيب الإنسان بمرض فقد أرشد النبي ﷺ إلى التداوي بقراءة سورة الفاتحة ، كما أرشد القرآن إلى التداوي بالعسل ، ﴿فيه شفاء للناس﴾[5].

---

[1] سورة فصلت: ٢٦ .

[2] سورة المائدة: ٨٣ .

[3] سورة الأنفال: ٢ .

[4] باب: النوع الرابع والستون في إعجاز القرآن.

[5] سورة النحل: ٦٩ .

وأما الأمراض النفسية فالقرآن هو أفضل الأدوية لها ، بل إن سبب هذه الأمراض هو البعد عن القرآن ، ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[1] ، ومن تلك الأمراض القلق والاكتئاب والسحر والأخلاق الرديئة من طمع وكبر والانجراف وراء الشهوات وغير ذلك ، وذلك أن هذه الأمراض تحصل نتيجة الخواء الروحي ، وليس للخواء الروحي دواء إلا الرجوع إلى الله تعالى ، وصدق الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2] ، ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[3] ، ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[4] ، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾[5].

وقد شفى الله بقراءة القرآن الألوفَ المؤلفة ممن أصيبوا بالأمراض العضوية والنفسية على مرِّ العصور ، ولا يزال هذا يُشاهدُ ويُمارسُ ، بل قد صار الاستشفاء بالقرآن مُقرَّرا في بعض العيادات النفسية.

تاسعا: ومن وجوه إعجاز القرآن يُسرُ حفظِه عن ظهر قلب لمن أراد ذلك ، خلافا لغيره من الكتب ، فقد حُفِظ القرآن كاملا في صدور الملايين من الناس منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا ، وقد حفظه من هو من المكفوفين ، كما حفظه من هو من الأعاجم الذين يتكلمون اللغة العربية إلا قليلا ، فسبحان من بهر بكتابه العقول ، وسيستمر حفظه في صدور الناس إلى نهاية الدنيا.

---

[1] سورة طه: ١٢٤ .

[2] سورة الرعد: ٢٨ .

[3] سورة الإسراء: ٨٢ .

[4] سورة يونس: ٥٧ .

[5] سورة فصلت: ٤٤ .

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز لم – ولن – يحصل لغيره من الكتب إطلاقا.

فصل في بيان ما يضاد الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يضادُّه أحد عشر أمرا:

الأول: تكذيبها ، أي ادعاء أنها لم تنزل من عند الله ، ومن ذلك تكذيب الكفار بأن القرآن كلام الله وقالوا إنه مفترى من عند البشر ، حاشا لله ، وقد أكذب الله تعالى هذه المقولة في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾[1].

الثاني: تحريفها كما هو واقع التوراة والإنجيل ، وقد تقدم الكلام في هذا الموضوع.

الثالث: معارضة القرآن بالعقول ، وادعاء أن هناك ما هو أحسن منه وأفضل.

الرابع: ادعاء أن القرآن الموجود بأيدي المسلمين اليوم ناقص ، ومن هذا قول الرافضة إن القرآن أُنْقِص ثُلُثاه ، وإن هٰذين الثلثين متعلقان بفضائل أهل البيت ، ويدَّعون أن القرآن الكامل سيخرج في آخر الزمان!!

الخامس: ومما يضاد الإيمان بالقرآن العظيم تفضيل بعض الأوراد عليه ، كما تقوله فرقة التيجانية وبعض فرق المتصوفة ، قالوا: إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة خير من قراءة القرآن ستة آلاف مرة![2]

---

[1] سورة يونس: ٣٨ .

[2] انظر للتوسع في معرفة ما عليه هذه الفرقة كتاب «التيجانية» لعلي بن محمد الدخيل الله ، (ص ١١٦ وما بعدها) ، الناشر: دار طيبة – الرياض.

السادس: ومما يقدح في الإيمان بالقرآن العظيم قدحا عظيما ، الإعراض عن التحاكم إليه ، واستبداله بشرائع البشر وقوانينهم ودساتيرهم الوضعية ، وفاعل ذلك حكمه من جهة تكفيره أو عدمه بحسب حاله ، فإن كان الإعراض عن التحاكم إليه منطلقٌ من تَنَقُّص القرآن فهذا كُفرٌ لا ريب فيه ، كمن يحكم بغير ما أنزل الله في القرآن معتقدا أنه لا يصلح للتحاكم إليه في زماننا ، أو إن شريعة البشر مساوية لما في القرآن في العدل والحكمة أو أحسن منه ، فهذا كفر صريح ، لأنه تكذيب للقرآن ، وطعنٌ في حكمِ الله وشرعِهِ ، ومن ثم فإنه تَـنَقُّصٌ له ، وتنقُّـصُ الله كفر ، بل يلزم منه تفضيل المخلوقين على الخالق تعالى في بعض صفاتهم ، كصفة العلم والحكمة وغيرها ، وهذا كفر صريح لا شك فيه ، والواجب هو الإيمان بأن الله هو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1].

وأما إن كان الإعراض عن التحاكم إليه لهوى في النفس من ظلم أو رشوة أو نحوه ، مع اعتقاده بأن حكم الله يجب العمل به وأنه الأصلح للبشر ؛ فهذا الحاكم لا يكفُر ، سواء كان واليا أو قاضيا ، بل يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب ، وهو المعروف بالكفر الأصغر.

والكلام في الحكم بغير ما أنزل الله يطول ، وقد تكلم أهل العلم فيه في كتب التفسير والعقائد وغيرها.

والإعراض عن التحاكم إلى ما أنزل الله يعتبر من ألوان الانحراف التي وقع فيها من قبلنا من الأمم كاليهود والنصارى ، عياذا بالله ، فمن وقع في ذلك فقد تشبه بهم ، وبئس من تُشُبِّهَ بهم.

---

[1] سورة الملك: ١٤ .

السابع: ومما ينافي الإيمان بالقرآن تفسيره بالأهواء والأقوال الباطلة التي لم تثبُت عن السلف الصالح ، كتفسيرات الجهمية والمعتزلة والرافضة والتفسير الإشاري ونحو ذلك.

الثامن: ومما ينافي الإيمان بالقرآن إهانتُهُ كما يفعل السحرة من وضعِهِ في المزابل أو في أماكن قذرة وتلويثه وتمزيقه ، وهذا كفرٌ بالله العظيم ، وللعلم فإنه الشياطين لا تُتمِّم للساحر سحره إلا بإهانة القرآن العظيم.

التاسع: ومما يقدح في الإيمان بالقرآن الإعراض عن العمل بأحكامه ، سواء المتعلقة بجانب الاعتقاد أو العبادات أو الآداب والسلوك.

تنبيه

ومما ينبغي أن يُعلم أن أعداء الدين من يهودٍ ونصارى وملحِدين ومقلِّدين لهم دور هام في صد المسلمين عن العمل بالقرآن منذ القِدم ، ومن ذلك قول «غلادستون» رئيس وزراء بريطانيا سابقا في مجلس العموم البريطاني: «ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع «أوربة» السيطرة على الشرق».

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مئة سنة على استعمار الجزائر: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية ، فيجب أن نُزيل القرآن العربي من وجودِهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم».[1]

[1] يُنظر للتوسع كتاب «قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام ، أبيدوا أهله» ، لجلال العالم (ص: ٤٠).

العاشر: ومما ينافي الإيمان بالقرآن القول بخلق القرآن ، وأنه ليس كلام الله تعالى على الحقيقة ، وإنما هو معانٍ نفسية خلقها الله في غيره ، وهذه عقيدة فرقة الجهمية. والصواب الذي عليه أهل الإسلام أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

الحادي عشر: ومما ينافي الإيمان بالقرآن عدم الإيمان بالسنة الشريفة ، وهذا كفر بالقرآن أصلا ، لأنها — أي السنة الشريفة – وحي من عند الله ، تُبين القرآن وتفسره ، وتُخصِّص عموماته ، وتُقيِّد مطلقه.

ثم إن الله تعالى أمر الله بطاعة رسوله ﷺ ، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالسنة الشريفة ، قال تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ، وقال تعالى﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾[1].

هذه أهم مظاهر الإعراض عن القرآن العظيم ، نسأل الله أن يُجنبنا إياها ، وأن يوفقنا للإيمان بكتابه حق الإيمان ، وقراءته وتدبره والعمل به.

[1] سورة النساء: ٨٠ .

فصل في ثمرات الإيمان بالكتب[1]

الإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده ، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

الثانية: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرّع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ، كما قال الله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

الثالثة: شكر نعمة الله في ذلك.

الرابعة: الهداية إلى الصراط المستقيم والدين القويم الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده.

الخامسة: السلامة من الضلال والانحراف والتخبط الذي يقع فيه البشر بسبب بعدهم عن شريعة الله المذكورة في كتبه المنزلة.

---

[1] استفدت جُلَّ هذا الفصل من كتاب «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ ، و «شرح أصول الإيمان» ، ص ٣١ ، الناشر: دار ابن خزيمة – الرياض.

[2] سورة المائدة: ٤٨ .

الركن الرابع: الإيمان بالرُّسُـل

الرُّسُـل جمع (رسول) بمعنى (مُرسَل) وهو المبعوث بإبلاغ شيء ، والمراد هنا: مَن أُوحي إليه من البشر بشرعٍ ، وأُمِر بتبليغِهِ.[1]

ستة عشر فائدة في النبوات

الغاية من إرسال الرسل

الرسل وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ شرعه إليهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، لأن الناس مهما أوتوا من العلم والذكاء فلا يمكن أن تستقل عقولهم بتشريع عام مُوحَّد تنتظم به مصالح الأمة على أحسن ما يكون ، وذلك لأن عقول البشر قاصرة ، أما الله فهو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2].

فمن رحمة الله تعالى أن أرسل الرسل ليبلغوا الناس ما ينفعهم ، وبهذا كانوا حجة لله على الناس ، كما قال تعالى ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾[3].

---

[1] انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ .

[2] سورة الملك: ١٤ .

[3] سورة النساء: ١٦٥ .

بيان الفرق بين النبي والرسول

اختلف العلماء رحمهم الله في تعريف النبي على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن النبي هو الذي أَوحى الله إليه بوحيٍ ، لينقله إلى المؤمنين الذين عنده ، كأنبياء بني إسرائيل ، يأمرون أقوامهم بما جاء في التوراة التي أُنزِلت على موسى ﷺ .

وكذا اختلف العلماء في تعريف الرسول على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن الرسول هو الذي ينبئه الله ، ثم يأمره أن يبلغه رسالته إلى قوم كافرين كما حصل مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

ويشهد لصحة هذا المعنى أن نوحا وُصف بالرسالة مع أنه قد تقدمه أنبياء على مدى عشرة قرون ، منهم شيث وإدريس عليهما السلام ، وما ذاك إلا لأنه بُعِث لقوم كافرين أول ما وقع الشرك في الأرض ، بخلاف من تقدمه من الأنبياء ، فإنهم بُعِثوا إلى قوم مؤمنين.

وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا.[1]

أول الرسل نوح ، قال الله تعالى ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾[2].

---

[1] انظر كتابه «النبوات» ، (٢/٧١٤ ، ٧١٧) ، تحقيق د. عبد العزيز بن صالح الطويان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض.

وانظر للاستزادة في هذا الباب ما قاله الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» في تفسير قوله تعالى في سورة الحج ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾.

[2] سورة النساء: ١٦٣ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحًا ، فإنه **أول رسول** بعثه الله إلى أهل الأرض.[1]

فإن قيل: أليس آدم عليه السلام أول رسول لبني آدم؟

فالجواب ما قاله الإمام الشنقيطي رحمه الله:

الظاهر أنه لا طريق للجمع إلا من وجهين:

الأول: أن آدم أُرسِل لزوجه وذريته في الجنة ، ونوح أول رسول أُرسِل في الأرض ، ويدل لهذا الجمع ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: (ويقول: ولكن ائتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ...) الحديث.

فقوله: (إلى أهل الأرض) لو لم يُرَد به الاحتراز عن رسولٍ بُعِث لغير أهل الأرض لكان ذلك الكلام حشوا ، بل يُفهم من مفهومِ مخالفته ما ذكرنا.

الوجه الثاني: أن آدم أُرسِل إلى ذريته وهم على الفطرة ، لم يصدر منهم كفر فأطاعوه ، ونوح هو أول رسولٍ أُرسِل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ الآية ، أي: على الدين الحنيف حتى كفر قوم نوح ، وقوله ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ الآية. والله تعالى أعلم.[2]

---

[1] أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) ، ولفظ مسلم: فيأتون نوحا عليه السلام ، فيقولون: يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ... الحديث.

[2] باختصار يسير من كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة البقرة: ٢٥٣ .

وآخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ ، قال تعالى ﴿ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ من رجَالِكُمْ وَلَكِن رسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين﴾[1] .[2]

ولم تخلُ أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحَى إليه بشريعة مَن قبله ليجددها ، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[3] ، وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[5] .

ودعوة الرسل واحدة ، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية ، كما دل على ذلك قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[6] .

---

[1] سورة الأحزاب: ٤٠ .

[2] **تنبيه:** لم يقل (وخاتم المرسلين) ، لأن النبوة إذا ختمت فقد ختمت الرسالة من باب أولى.
فإن قيل: كيف الجمع بين كون محمد ﷺ خاتم النبيين ونزول عيسى ﷺ في آخر الزمان؟
فالجواب أن عيسى ﷺ لا ينزل بشريعة مستقلة ، بل ينزل ويحكم بشريعة محمد ﷺ ، فهو تابع لمحمد ﷺ .
انظر «فتاوى الحرم المكي» (٣٧/١) لابن عثيمين ، وكذا «شرح الواسطية» (٦٦/١).

[3] سورة النحل: ٣٦ .

[4] سورة فاطر: ٢٤ .

[5] سورة المائدة: ٤٤ .

[6] سورة الأنبياء: ٢٥ .

والرسل بشر اصطفاهم الله لحمل الرسالة ، وحباهم قدرة على القيام بأعبائها والصبر على مشاقِّها ، لاسيما أولو العزم منهم[1] ، قال تعالى ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾[2].

والرسل بشر مخلوقون ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ – وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله – ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] ، وقال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[4].

والرسل تلحقهم خصائص البشرية من المرض والموت والحاجة إلى الطعام والشراب وغير ذلك ، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وصفه لربه تعالى ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[5].

وقال النبي ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني.[6]

وقد وصف الله تعالى رسله بالعبودية له في سياق الثناء عليهم ، فقال تعالى في نوح ﷺ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورا﴾[7] ، وقال في محمد ﷺ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ

---

[1] سيأتي التعريف بهم قريبا إن شاء الله.

[2] سورة الحج: ٧٥ .

[3] سورة الأعراف: ١٨٨ .

[4] سورة الجن: ٢١-٢٢ .

[5] سورة الشعراء: ٧٩-٨١ .

[6] رواه البخاري (٤٠١) ، ومسلم (٥٧٢) ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[7] سورة الإسراء:٣ .

نَذِيرا﴾[1] ، وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلى الله عليهم وسلم ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[2] ، وقال في عيسى ابن مريم ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3].

فالرسل عبيد لله ، وعليه فلا يجوز أن يُصرف لهم شيء من العبادات ، لا دعاء ولا ذبح ولا نذر ولا سجود ولا غيرها من العبادات ، بل المستحق لذلك هو الله وحده ، وهذا أمر مُجمع عليه في جميع الشرائع السماوية كما قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[4].

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض ، كما قال تعالى ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾[5].

وأفضل الرسل هم أولو العزم وهم خمسة ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن ؛ في سورة الأحزاب وفي سورة الشورى ، في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ

---

[1] سورة الفرقان: ١ .

[2] سورة ص: ٤٥ .

[3] سورة الزخرف: ٥٩ .

[4] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[5] سورة الإسراء: ٥٥ .

مَرْيَمَ﴾[1] ، وفي قوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[2].

ودلائل تفضيل هؤلاء الخمسة على غيرهم من الأنبياء وكونهم من أولي العزم واضحة ، فمحمد ﷺ قد تقدم الكلام عنه.

وأما نوح ﷺ فإنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعدما طرأ الشرك عليهم ، وقد لبث نحو عشرة قرون يدعو إلى التوحيد.

وأما إبراهيم ﷺ فإنه أبو الأنبياء كلهم ممن أتى بعده ، ولهذا أخبر تعالى عنه أنه جعل في ذريته النبوة والكتاب ، قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾[3].

كما أن إبراهيم عليه السلام كان صِدِّيقا ، وهي صيغة مبالغة من الصِّدق ، لشدة صدقه في معاملته مع ربه ، وقد شهد له الله بذلك في قوله تعالى ﴿وإبراهيم الذي وفَّى﴾ ، وقوله ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمَّهن﴾ ، ودلائل صدقه في معاملته مع ربه عديدة ، منها رضاه بذبح ولده استجابةً لأمر ربه ، وصبره على الإلقاء في النار ، وصبره على مفارقة الأهل والوطن فرارا بدينه.[4]

---

[1] سورة الأحزاب: ٧ .

[2] سورة الشورى: ١٣ ، وانظر تقرير ابن كثير لهذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾. سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .

[3] سورة الحديد: ٢٦ ، وانظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة العنكبوت.

[4] انظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة مريم ، تفسير قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾.

وأما موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فـوَجْـهُ تفضيلهما على غيرهما من الأنبياء أن الله تعالى أرسلهما إلى أعظم أمة بعد أمة محمد ﷺ ، وهي أمة بني إسرائيل ، وأنزل عليهما أفضل الكتب بعد القرآن وهما التوراة والإنجيل ، وقد لقيا في سبيل تحمل أعباء الدعوة من المشاق الشيء العظيم مما هو مذكور في القرآن العظيم.[1]

وموسى أفضل من عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وذلك ظاهر في كون الآيات التي آتاها الله تعالى لموسى أعظم من الآيات التي آتاها الله لعيسى ، قال ابن تيمية رحمه الله:

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التي انقلبت فصارت ثعبانا مبينا حتى بلعت الحبال والعِصِي التي للسحرة ، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا.

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره ، وهي أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول ، والله تعالى يحيي الموتى بإقامتهم من قبورهم ، وقد أحيا غير واحد من الموتى في الدنيا ، وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال والعصي فهذا أعجب من حياة الميت.

وأيضا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح ، قال تعالى ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة

[1] انظر للفائدة ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في علة كون آدم عليه السلام ليس من أولي العزم في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة طه ، تفسير قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾.

فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[1] ، وقال تعالى ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾[2] ، وقال تعالى ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾[3].

وأيضا فموسى عليه الصلاة والسلام كان يُخرج يده بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء أثر البرص الذي فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العَجَب الإبراء منه ، وأما بياض اليد من غير برص ثم عودها إلى حالها الأول ، ففيه أمران عجيبان لا يُعرف لهما نظير.

وأيضا فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرِق فيه فرعون وجنوده ، وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح.

وأيضا فموسى كان الله يُطعمهم على يده المَنَّ والسلوى[4] مع كثرة بني إسرائيل ، ويفجر لهم بضربه للحَجر كل يوم اثني عشر عينا يكفيهم ، وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمرا ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكان لموسى في عدوه من القُمَّل والضفادع[5] والدم وسائر الآيات ما لم يكن مثله للمسيح.[1]

---

[1] سورة البقرة: ٥٥ – ٥٦ .

[2] سورة البقرة: ٧٣ .

[3] سورة البقرة: ٢٤٣ .

[4] المَنُّ هو نبات الكمأ ، وهو نوع من الخضروات يخرج من الأرض أيام الأمطار بدون سقي ولا بذر ، وهي مما مَنَّ الله بها على عباده ، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: الكمْأة من المَن ، وماؤها شفاءٌ للعين. رواه البخاري (٤٨٧٤) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه. وانظر «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير.

والسلوى طائر كالسُّمَّانى. قاله الأصبهاني في «المفردات في غريب القرآن».

[5] انظر الكلام على هاتين الآيتين في الحاشية التالية.

[1] أشار الله تعالى إلى آيات موسى التسع الدالة على نبوته في موضعين من القرآن:

الأول: في سورة الإسراء ، الآية رقم ١٠١ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

والآية الثانية في سورة النمل ، الآية رقم ١٢ : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ومعنى الآيتين: ولقد آتينا موسى تسع معجزات واضحات شاهدات على صِدْق نبوته وهي: العصا واليد والسنوات العجاف التي ابتلى بها الله آل فرعون ، ثم كشفها الله عنهم بسبب دعاء موسى لهم ، ونقص الثمرات عليهم والطوفان والجراد والقُـمَّل والضفادع والدم الذي ابتلاهم الله به.

فأما آية العصا فمعروفة.

وأما آية اليد فهي إدخال موسى يده في جيبه فتخرج بيضاء كالثلج من غير بَرَص ولا مرض.

وأما الآيات السبع الباقية فهي التي ذكرها الله في القرآن في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطَّيَّروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتِنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُـمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرِّجزُ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهِد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنُرسِلن معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرِّجزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾.

وتفسير الآيات المتقدمة كالتالي: ولقد ابتلينا فرعون وقومه بآيتين وهما القحط ونَقْص الثمار ، ليتذكروا ، وينزجروا عن ضلالاتهم ، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة.

فإذا جاء فرعونَ وقومَه سنة فيها خِصب وسعة رزق قالوا: هذا لنا بما نستحقه ، وإن يُصِبْهم جدب وقحط يتطيروا أي يتشاءموا ، ويقولوا: هذا بسبب موسى ومَن معه. فرد الله عليهم أن ما يصيبهم من الجدب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره ، وبسبب ذنوبهم وكفرهم ، ولكن أكثر قوم فرعون لا يعلمون ذلك ، لانغمارهم في الجهل والضلال.

وقال قوم فرعون لموسى: أيُّ آيةٍ ودلالةٍ وحجةٍ تأتِنا بها لتصرفنا عما نحن عليه من ديننا ، فما نحن لك بمصدِّقين بها.

انتهى كلامه رحمه الله.[1]

وأفضل الرسل قاطبة هما الخليلين ، إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لأن الله لم يتخذ خليلين إلا هما عليهما الصلاة والسلام.

وأفضل الخليلين هو محمد ﷺ ، فقد فضله الله على جميع الخلق أولهم وآخرهم ، الأنبياء وغيرهم ، فهو إمامهم وسيدهم ، كما قال ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)[2].

فأوقع الله عليهم الرِّجز ، وهو خمس من البلايا ، أولها الطوفان ، وهو سيل جارفٌ أغرق الزروع والثمار ، وكذلك الجراد ، فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ، وأرسل عليهم القُمَّل الذي يفسد الثمار ويقضي على الحيوان والنبات ، وأرسل عليهم الضفادع فملأت آنيتهم وأطعمتهم ومضاجعهم ، وأرسل عليهم الدم فصارت أنهارهم وآبارهم دمًا ، ولم يجدوا ماء صالحًا للشرب.

هذه البلايا التي ابتلى الله بها بني إسرائيل هي آيات من آيات الله لا يقدر عليها غيره ، ودالات على أن موسى نبي من عند الله ، عصاه فرعون وقومه فابتلاهم الله بها.

ولما نزل العذاب على فرعون وقومه فزِعوا إلى موسى وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما أوحى به إليك مِن رَفْع العذاب بالتوبة ، لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه لنصَدِّقنَّ بما جئت به ، ونتبع ما دعوت إليه ، ولنطلقنَّ معك بني إسرائيل ، فلا نمنعهم من أن يذهبوا حيث شاؤوا.

فلما رفع الله عنهم العذاب الذى أنزله بهم إلى أجلٍ إذا هم ينقضون عهودهم التي عاهدوا عليها ربهم وموسى ، ويقيمون على كفرهم وضلالهم ، فانتقمنا منهم حين جاء الأجل المحدد لإهلاكهم ، وذلك بإحلال نقمتنا عليهم ، وهي إغراقهم في البحر ، بسبب تكذيبهم بالمعجزات التي ظهرت على يد موسى ، والدالة على نبوته.

ثم أورثنا بني إسرائيل – الذين كانوا يُستَذَلُّون لخدمة قوم فرعون – مشارق الأرض ومغاربها ، وهي بلاد الشام التي باركنا فيها ، بإخراج الزروع والثمار والأنهار ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بالتمكين لهم في الأرض بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه ، ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع ، وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور ويتخذونها عروشا لملكهم.

[1] انظر ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في «الجواب الصحيح» (٤/١٧ – ١٩).

[2] رواه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كما اختصه الله بآيات تفوق تلك التي آتاها الله غيره من الأنبياء ، وآمن عليها أكثر ما آمن عليه البشر ، وأعظمها القرآن الكريم ، ومن المعلوم أن آيات الأنبياء انتهت بموتهم ، أما القرآن فآية خالدة.

ومن دلائل تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء أن الله تعالى جمع فيه ما تفرق في غيره من الأنبياء من الخصائص ، وهو الخُلَّة والكلام والنبوة والرسالة ، فأما الخلة – وهي أعلى درجات المحبة – فهو خليل الله ، والله خليله ، وهو يشترك في هذه الخصلة مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال ﷺ : وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا.[1]

وكذلك الكلام ؛ فقد كلمه الله يوم عُرِج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وهو يشترك في هذه الخصلة مع موسى عليه الصلاة والسلام.

وأما وصفه بالنبوة والرسالة فمعلوم من آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ ، وقوله ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾.

وهذه الصفات الأربع ، الخُلَّة والكلام والنبوة والرسالة ، لم تجتمع في نبي قط إلا في نبينا محمد ﷺ ، وهذا من دلائل تفضيله على سائر الأنبياء.

فإن قيل: وما الجمع بين ما نصَّ عليه القرآن الكريم من تفضيل بعض الأنبياء على بعض وبين ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تُفضِّلوا بين أنبياء الله)[2]؟

[1] رواه مسلم (٢٣٨٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] رواه البخاري (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فالجواب من كلام ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة: المراد من ذلك[1] هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم. انتهى كلامه.

فائدة

كثيرا ما يقرن الله سبحانه وتعالى في القرآن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين.[2]

فائدة في انقسام الأنبياء إلى عبدٍ رسولٍ ونبيٍّ ملِكٍ ، وأفضلية من كان عبدا رسولا على من كان ملِكا نبيا

الأنبياء والرسل ينقسمون إلى عبد رسول ونبي ملِك ، والدليل على هذا التقسيم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملَكٌ ينزِل ، فقال له جبريل: إن هذا الملَك ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد ، أرسلَني إليك ربك ، أفملِكا نبيا يجعلُك أو عبدا رسولا؟

قال جبريل: تواضع لربك يا محمد.

فقال رسول الله ﷺ : بل عبدا رسولا.[3]

قلت: والعبد الرسول أفضل من الملِك النبي من وجهين:

---

[1] أي: من ذلك النهي.

[2] قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في مقدمة تفسير سورة الإسراء.

[3] رواه أحمد (٧٧/١٢) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الأول: أن الرسول يكون مبعوثا إلى قوم كافرين ، وأما النبي فيكون مبعوثا إلى قوم مؤمنين ، فمهمة الرسول أصعب فلهذا كان أفضل ، وقد تقدم معنا بيان الفرق بين النبي والرسول.

الوجه الثاني: أنَّ من كان عبدا فإنه لا يتصرف فيما تحت مُلكه إلا بإذن الله ، قال ﷺ : إنما أنا قاسم ، والله يعطي.[1]

وأما من كان ملِكا فإنه يتصرف كما يشاء من غير إثم عليه.

فحال الأول أكمل من حال الثاني فيما يتعلق بالعبودية لله تعالى.

قال ابن تيمية رحمه الله في مسألة انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبدٍ رسول ونبيٍ ملِك:

العبد الرسول أكمل من النبي الملِك ، ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك.

وأما محمد ﷺ فهو عبدٌ رسول ، كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام ، وهذا الصنف أفضل ، وأتباعهم أفضل.[2]

وقال أيضا: وقد خيَّر الله سبحانه محمدا ﷺ بين أن يكون عبدا رسولا وبين أن يكون نبيا ملِكا ، فاختار أن يكون عبدا رسولا.

فالنبي الملِك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام ، قال الله تعالى في قصة سليمان الذي ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاص * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَاد * هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب﴾.

أي: أعطِ مَن شئت ، واحرم من شِئت ، لا حساب عليك.

---

[1] رواه البخاري (٧١).

[2] النبوات (١/١٦٣).

فالنبي المِلِك يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرَّم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه.

وأما العبد الرسول فلا يُعطي أحدا إلا بأمر ربه ، ولا يُعطي من يشاء ويَحرم من يشاء...

ثم قال: والمقصود هنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبي المِلِك ،كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ،كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين ، الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء[1] ، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أُبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك[2].[3]

وقال أيضا: والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يَرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته.[4]

وقال أيضا: طاعة الجن لسليمان عليه السلام طاعة مَلَكية ، أما طاعة الجن لنبينا ﷺ فإنها طاعة نبوية.[5]

---

[1] أي من الأبرار أصحاب اليمين.

[2] أي من المقربين السابقين.

[3] انظر «مجموع الفتاوى» (١١/١٨٠-١٨٢).

[4] انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/٨٩).

[5] انظر كتاب «النبوات» ، ص ٨٤١ .

قلت: ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى عن الجن ﴿يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾.[1]

وقال تعالى عنهم في سورة الجن ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ ... الآيات.

وقال أيضا ما محصَّلُه أن النبي ﷺ لم يستخلف من بعده أحدا من أهل بيته ولم يُخَلِّف لهم مالا ، وإن كان ذلك مباحا في حقه ﷺ ، فدل ذلك على حرصه على مقام العبودية والرسالة على مقام الملك والنبوة.[2]

والرسل غالبون دائما ، كما قال تعالى ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾[3] قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رُسُلِ الله غالبون لكل من غالبهم ، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، وغلبة بالسيف والسنان ، وهي ثابتة لمن أُمِر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به ، وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾[4] أنه لن يقتل نبي في جهاد قط ، لأن المقتول ليس بغالب ، لأن القتل قِسمٌ مقابلٌ للغلبةِ كما بينه تعالى في قوله ﴿ومن يقاتل في

---

[1] سورة الأحقاف: ٣٠ – ٣١ .

[2] انظر «منهاج السنة النبوية» (٤٦٧/٧).

[3] سورة المجادلة: ٢١ .

[4] سورة الصافات: ١٧١ – ١٧٣ .

سبيل الله فيقتل أو يغلب﴾[1] الآية ، وقال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا﴾[2] الآية ، وقد نفى عن المنصور كونه مغلوبا نفيا باتا في قوله تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[3].[4]

وقال ابن تيمية ما محصَّله أن ظهور الأنبياء على من خالفهم بالحجة والعلم من جنس المجاهد الذي هزم عدوه ، وظهور الأنبياء على من خالفهم بالسيف وغلبتَهم عليهم من جنس المجاهد الذي قتل عدوه.[5]

فائدة

سَـرَد الحافظ ابن حجر رحمه الله جملة فوائد من غزوة أحد منها "أن عادة الرسل أن تُبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك: أنهم لو انتصروا دائما دخل في المؤمنين من ليس منهم[6] ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب".[7]

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل يتضمن سبعة أمور:

---

[1] سورة النساء: ٧٤ .

[2] سورة غافر: ٥١ .

[3] سورة آل عمران: ١٦٠ .

[4] انظر «أضواء البيان».

[5] انظر «النبوات» ، ص ٢٠٩ .

[6] يعني من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

[7] باختصار يسير من «فتح الباري» ، كتاب المغازي ، تحت قوله: (باب غزوة أحد).

الأول: الإيمان بأن الأنبياء كلهم بينهم قاسم مشترك ، وهو الإسلام بمعناه العام ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو إفراد الله بالعبادة وترك عبادة من سواه كائنا من كان) ، قال الله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الاتفاق في أصل الدين بين الأنبياء في قوله: والأنبياء إخوة لِـعَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.[2]

ففي هذا الحديث شبه النبي ﷺ الأنبياء بالإخوة من العَلاَّت ، وهن الأمهات الذين لهم زوج واحد ، فالأمهات هن الشرائع ، والأب واحد وهو الإسلام بمعناه العام الذي تقدم آنفا ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو إفراد الله بالعبادة).

فبناء على هذه القاعدة فالأنبياء جميعهم من آدم إلى محمد مرورا بإبراهيم وموسى وعيسى كلهم مشتركون مع الدين الإسلامي الذي جاء به محمد في التمسك بالإسلام بمعناه العام ، ليس بينهم فرق إذا نظرنا إليهم من هذا الجانب ، في حين أن لكل أمة من الأمم التي أُرسِل إليها الأنبياء شريعة ومِنهاجا غير التي مع الأمة الأخرى ، كما قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا﴾. أي: فقد جعلنا لكل أمة شريعة وطريقة يعملون بها ، وهذا من حكمة الله تعالى في شرعه ، حيث شرّع لكل قوم ما يناسب أحوالهم.

---

[1] سورة الأنبياء: ٢٥.

[2] تقدم تخريجه.

الثاني: الإيمان بهم جميعا من غير تفريق بينهم ، وضد هذا الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر ولو كان نبيا واحدا ، قال تعالى في وجوب الإيمان بجميع الأنبياء ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿لا نُفرّق بَينَ أحد منهم﴾: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ونتبرَّأ من بعضٍ ونتولى بعضًا ، كما تبرأت اليهودُ من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرّت بغيرهما من الأنبياء ، وكما تبرأت النصارَى من محمد ﷺ وأقرّت بغيره من الأنبياء ، **بل نشهد لجميعهم أنّهم كانوا رسلَ الله وأنبياءَه ، بُـعِـثوا بالحق والهدى**. انتهى.

قلت: ووجه كون عدم الإيمان برسول واحد كفرا أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بُعِث بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

من صدّق محمدا فقد صدّق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، ومن كذّبه فقد كذّب كل نبي ، ومن عصاه[1] فقد عصى كل نبي ، قال تعالى ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا﴾[2] ، وقال تعالى ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من

[1] أي عصيانا كليا.

[2] سورة النساء: ١٥٠ – ١٥١ .

يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾[1].

ومن كذَّب هؤلاء تكذيبا بجنس الرسالة فقد صرَّح بأنه يكذب الجميع ، ولهذا يقول تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ ، ولم يرسل إليهم قبل نوح أحدا ، وقال تعالى ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾[2].[3]

قلت: ونظيره قول الله تعالى ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ ، وقوله ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ ونحو ذلك من الآيات.

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله:

من كذَّب رسولا واحدا فقد كذَّب جميع المرسلين ، ومن كذَّب نذيرا واحدا فقد كذَّب جميع النذر ، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي مضمون «لا إلـه إلا الله» كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[4] ، وقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون﴾[5] وقوله تعالى ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمٰن آلهة يُعبدون﴾[6].

---

[1] سورة البقرة: ٨٥ .

[2] سورة الفرقان: ٣٧ .

[3] قاله ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (١٨٥/١٩).

[4] سورة النحل: ٣٦ .

[5] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[6] سورة الزخرف: ٤٥ .

وأوضح تعالى أن من كذَّب بعضَهم فقد كذَّب جميعهم في قوله تعالى ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا﴾ الآية[1] ، وأشار إلى ذلك في قوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾[2] ، وقوله ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾[4] الآية. انتهى كلامه رحمه الله.[5]

تنبيه: النصارى كذبوا محمدًا ﷺ ولم يَتّبعوه ، فهم بهذا مكذبون للمسيح بن مريم غير متبعين له أيضًا ، لأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ وأمرهم بالإيمان به فلم يتبعوه ، نسأل الله العافية والسلامة.

وكذلك الأمر بالنسبة لليهود ، فهم لم يصدقوا بنبوة محمد ﷺ ولا بنبوة المسيح عيسى بن مريم ﷺ ، فهم بهذا كفار ليسوا مؤمنين ، ولو كانوا يؤمنون بموسى والأنبياء قبله.

ووجه كون عدم الإيمان برسول واحد كفرا أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

الثالث مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم في القرآن أو صحيح السنة ، فأما القرآن فجاء فيه ذكر ستة وعشرين نبيا ، وهم آدمُ ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل

---

[1] سورة النساء: ١٥٠ – ١٥١ .

[2] سورة البقرة: ٢٨٥ .

[3] سورة البقرة: ١٣٦ .

[4] سورة النساء: ١٥٢ .

[5] «أضواء البيان» ، تفسير سورة القمر: ٤١ .

وداود وسليمان وأيوب وإلياس ويونس واليسع ولوط وإدريسُ وهودٌ وشعيبٌ وصالحٌ وذو الكِفلِ ويوسف وموسى وهارون والخِضر وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا.

وقد نظم أحد الشعراء أسماء خمسة وعشرين نبيا ورد ذكرهم في القرآن في نظمٍ لطيف فقال:

في ﴿تلك حجتنا﴾[1] منهُمُ ثمانيةٌ من بعدِ عشرٍ يبقى سبعةٌ وهُمُ

إدريسُ هودٌ شعيبٌ صالحٌ وكذا ذو الكِفلِ آدمُ وبالمختارِ قد خُتِموا

وقد جاء في السُّنَّة ذكر نبي من الأنبياء لم يأت ذكره في القرآن ، وهو يوشع بن نون بن أفراهيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام[2] ، من أنبياء بني إسرائيل ، وكان قائد بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إن الشمس لم تُحبَس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس.[3]

وحبْسُ الشمس إنما هو ليستمر النهار فلا تغرب عليهم فيحل الظلام فلا يستطيعوا فتح البلد التي قصدوها وهي بيت المقدس ، وكانوا في يوم جمعة ، ولو دخل عليهم المغيب لدخل يوم السبت ، فلا يتمكنون معه من القتال ، لأن اليهود محرم عليهم فيه العمل ، فنظر النبي يوشع إلى الشمس

[1] يشير إلى الآيات (٨٣ – ٨٦) من سورة الأنعام حيث ورد فيهن أسماء ثمانية عشر رسولا.

[2] رواه أحمد في «المسند» (٣٢٥/٢) ، وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط البخاري.

[3] انظر «البداية والنهاية» ، ذكر نبوة يوشع.

ودعى ربه بأن لا تغيب حتى يتم الهجوم والنصر ، وبقدرة الله كان له ذلك ، فحبَس الله الشمس في مكانها حتى قضوا حاجتهم وفتحوا البلد ، والحمد لله.[1]

وأما من لم نعلم اسمه من الأنبياء فنؤمن به إجمالا ، وقد أومأ القرآن إليهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً من قَبْلِكَ مِنْهُم من قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم من لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[2].

ويدخل في هؤلاء الذين لم نعلم أسمائهم الأسباط ، وهم الأنبياء من ذرية يعقوب عليهم الصلاة والسلام ، وهو إسرائيل ، إذ السبط في بني إسرائيل يكافىء القبيلة في بني إسماعيل ، والشعوب في العجم ، وسُمُّوا الأسباط بذلك من السَّبط وهو التتابع ، وهم اثنا عشر رَجلا ، وَلَد كل رجل منهم أمّة من الناس ، فسموا أسباطا[3] ، وليس أحد من ذرية يعقوب نبيا إلا يوسف عليه السلام ، كما سيأتي بيانه.[4]

وكان هؤلاء الأسباط متتابعون في ظهورهم حتى جاء المسيح عليه السلام.

فالحاصل أن عدد الأنبياء والرسل المذكورين في الكتاب والسنة سبعة وعشرين ، والحمد لله.

ورسل الله ثلاثمائة وخمسة عشر ، منهم الرسل الذين صرح القرآن والسنة بأسمائهم وقد تقدموا ، والبقية لا نعلمهم ، والدليل على عددهم حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله ، أنبيٌّ كان آدم؟

---

[1] وانظر القصة مفصلة في «صحيح البخاري» (٣١٢٤ ، و«مسلم» (١٧٤٧) ، وكذلك «البداية والنهاية» ، ذكر نبوة يوشع.

[2] سورة غافر: ٧٨ .

[3] انظر «تفسير الطبري» ، سورة البقرة: ١٣٦ .

[4] انظر «تفسير ابن كثير» ، سورة يوسف: ٨ .

قال: نعم ، معلَّمٌ مكلَّم.

قال: كم بينه وبين نوح؟

قال: عشرة قرون.

قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟

قال: عشرة قرون.

قالوا: يا رسول الله ، كم كانت الرسل؟

قال: ثلاثمائة وخمس عشرة ، جمًّا غفيرا.[1]

الرابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: التصديق بما صح عنهم من أخبارهم ، كالأخبار الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والأخبار الصحيحة التي ذكرها أصحاب السِّيَر وكتب التاريخ ، والتي تتضمن قصصهم وخصائصهم ، وأما الأخبار المروية عن الرسل في كتب أهل الكتاب والتي ليس لها ما يعضدها من الأخبار الصحيحة المذكورة في كتب المسلمين فهذه لا يلزم المسلم تصديقها ولا تكذيبها ، إلا إن كانت منافية لما في كتب المسلمين الصحيحة فعندئذ يجب تكذيبها ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»[2] الآية.[3]

---

[1] رواه الحاكم في «مستدركه» (٢/٢٦٢) ، واللفظ له ، وقال الذهبي: على شرط مسلم ، وكذا رواه الطبراني في «الكبير» (٨/١١٨-١١٩) ، وفيه: (ثلاثمائة وثلاثة عشر) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

[2] لعل هناك خطأ من النساخ ، فلفظ الآية ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم﴾ الآية (١٣٦) من سورة البقرة. وانظر تعليق محققي صحيح البخاري على الحديث ، طبعة مؤسسة الرسالة العالمية.

[3] رواه البخاري (٧٣٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمقصود بما أنزل إليهم هما التوراة والإنجيل الأصليين التي أنزلها الله على موسى وعيسى ، وليست التوراة والإنجيل المحرفة التي بأيدي اليهود والنصارى الآن.

الخامس من مقتضيات الإيمان بالرسل: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم ، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس ، قال الله تعالى ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1].

السادس مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بأنهم بلَّغوا جميع ما أرسلوا به على وَفْق ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوه بيانا شافيا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله ، قال تعالى ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾[2] ، ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾[3] ، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[4] ، ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[5].[6]

السابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بما أيَّدهم الله به من آيات ، وتسمى أيضا براهين ودلائل[7] ، وهي الأمور الخارقة للعادة التي يجريها الله على أيديهم دلالة على نبوتهم ، ولئلا يبقى

---

[1] سورة النساء: ٦٥ .

[2] سورة النحل: ٣٥ .

[3] سورة النحل: ٨٢ .

[4] سورة العنكبوت: ١٨ .

[5] سورة التغابن: ١٢ .

[6] انظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي ، ص ٣١١ ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

[7] يحسن هنا التنبيه إلى أن «الآيات» هي التسمية الدقيقة للأمور الخارقة للعادة ، وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن لفظ الآية والبَيِّنة والبُرهان هو الوارد في الكتاب والسنة ، وذكر جملة من الأمثلة على هذا ، وأما لفظ «المعجزة» فلم يرد في القرآن ، ولا يدل على كون المقصود آية أو دليلا إلا إذا فُسِّر به ، وإن كان كونها معجزة وخرقا للعادة من لوازم وشروط وصفات كونها بينة وآية.
انظر «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» (٥/٤١٢-٤١٩) ، و «النبوات» (ص ٨٢٨).

أمرُهم مشكلا على الناس ، فإن الناس إذا رأوا رسلهم قد أُيِّـدوا بأمور فوق قدرة البشر وطاقتهم ؛ علِموا أنهم مرسلون من عند الله تعالى ، فاستيقنوا أمرهم وآمنوا بهم وثبتت قلوبهم على الدين.

ومن تلك الآيات عصا موسى التي ألقاها بين أيدي سحرة فرعون فإذا هي حية تسعى ، تلقف وتلتهم ما ألقَوه من الحبال والعصي ، فآمنوا ، لأنهم علِموا أن ما أتى به موسى من عند الله وليس سحرا ، وبعد إيمانهم بقيت العصا معه ، فلما سار بقومه تجاه البحر فرارا من فرعون ضرب بهذه العصا البحر فانفلق فسار في طريق يابس مع قومه فنجاه الله ، وفي صحراء سيناء ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا على قدر أسباط بني إسرائيل ، فعصا موسى ليست إلا آية من عند الله ليعلم الناس أنه رسول من عند الله ، فيكون حجة على من لم يؤمن ، وتثبيتا لمن آمن به ﷺ .

ومن الآيات أيضا ما أيد الله به عيسى ﷺ ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، ويمسح بيده على الأكمه – وهو الذي وُلِد أعمى – والأبرص فيبرآن بإذن الله ، وكان يُحيِي الموتى بإذن الله ، أفليس هذا دليل على أنه رسول من عند الله؟ بلى والله.

كما أيد الله نبيه محمدا ﷺ بآيات كثيرة ، كلها تدل على صدق نبوته وأنه رسول من عند الله حقا ، أشهرها القرآن الكريم ، فهو الآية الكبرى الدالة على نبوة محمد ﷺ .

كما يجدر التنبيه إلى أنه ليست كل الآيات التي أيَّد اللهُ بها أنبياءه من قبيل الإعجاز ، وإنما اختُصَّ بذلك الآيات التي وردت في سياق التحدي والإعجاز للخصم ، فالقرآن – مثلا – آية على نبوة محمد ﷺ وفيه تحدٍّ ، فيكون معجزة ، أما حنين الجذع إليه ، وتسليم الحَجَر عليه فإنه آية على نبوته ﷺ وليس فيه تحدٍّ ، فلا يوصف بأنه معجزة.

وقد ذكر القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها) خمسة شروط للمعجزة ، فليراجعها من أراد التوسع.

فائدتان في باب الإيمان بالآيات التي أُرسل بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الفائدة الأولى:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل كبريات الآيات على أيدي رسله من جنس ما برز فيه أهل العصر الذي بُعث فيه ذلك الرسول ، ليكون ذلك أبلغ في الحجة والإقناع بأن ذلك الرسول مرسل من عند الله حقا ، ففي عصر موسى عليه الصلاة والسلام اشتهر قومه بالسحر ، فكانت آية موسى من جنس ما اشتهروا فيه وزادت عليه ، بأن كانت حقيقة لا خيالاً.

وفي عصر عيسى عليه الصلاة والسلام كان علم الطب مترقياً إلى حد كبير ، فجاءت آيته من جنس ما برزوا فيه وزيادة ، بأن جعل الله على يده الشفاء من أمراض لا يستطيع قومه علاجها وهي العمى والبرص ، بل وإحياء الموتى، كلها بإذن الله تعالى.

وكذلك الأمر بالنسبة لنبينا محمد ﷺ ، فقد ترقى الناس في عصره في جانب الفصاحة ، فكُتبت المعلقات الفصيحة ونُظمت القوافي البليغة ، فجاء القرآن معجزاً لهم أن يأتوا بمثله ، ثم أعجزهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلم يستطيعوا ذلك ولا بآية واحدة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السِّحر وتعظيم السّحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيّرت كل سحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عِباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبُعِث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرعَ الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكْمه والأبرص ، وبعْث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد[1]؟

وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمان الفصحاء والبُلغاء ونحارير[2] الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعَشْر سُور من مثله ، أو بسورة من مثله ؛ لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[3] ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا.

انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله.[4]

الفائدة الثانية:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل معجزة القرآن خالدة ، أما معجزات النبي ﷺ الأخرى وكذلك معجزات الأنبياء قبله فقد انقرضت ، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما مِن الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن

---

[1] يوم التَّناد هو يوم القيامة ، سُمِّي بذلك لأن الملائكة تنادي أهل الجنة بأعمالهم وأهل النار وأعمالهم ، وقيل لأن الناس ينادي بعضهم بعضا في ذلك اليوم إذا اشتد الهول والفزع.

[2] نحارير جمع نحرير ، وهو الحاذق الماهر العاقل المجرب. انظر «لسان العرب» ، مادة (نحر).

[3] الظهير هو المعين. انظر «لسان العرب» ، مادة (ظهر).

[4] «تفسير القرآن العظيم» ، سورة آل عمران ، الآية ٤٩ ، وللقرطبي كلام مثله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، خاتمة باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها) ، وكذا ابن حجر في «فتح الباري» (٦٢٢/٨) ، شرح حديث: (وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي).

عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيت وحيا أوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.[1]

قال النووي رحمه الله:

أَمَّا مَعَانِي الْحَدِيث فَاخْتُلِفَ فِيهِ عَلَى أَقْوَال ؛ أَحَدهَا أَنَّ كُلّ نَبِيّ أُعْطِيَ مِنْ الْمُعْجِزَات مَا كَانَ مِثْله لِمَنْ كَانَ قَبْله مِنْ الأنبياء ، فَآمَنَ بِهِ الْبَشَر ، وَأَمَّا مُعْجِزَتِي الْعَظِيمَة الظَّاهِرَة فَهِيَ الْقُرْآن الَّذِي لَمْ يُعْطَ أَحَد مِثْله ، فَلِهَذَا قَالَ: أَنَا أَكْثَرهمْ تَابِعًا.

وَالثَّانِي مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي أُوتِيته لا يَتَطَرَّق إِلَيْهِ تَخْيِيل بِسِحْرٍ وَشُبْهَة ، بِخِلَافِ مُعْجِزَة غَيْرِي ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُخَيِّل السَّاحِر بِشَيْءٍ مِمَّا يُقَارِب صُورَتهَا ، كَمَا خَيَّلَتْ السَّحَرَة فِي صُورَة عَصَا مُوسَى ﷺ ، وَالْخَيَال قَدْ يَرُوج عَلَى بَعْض الْعَوَامّ ، وَالْفَرْق بَيْن الْمُعْجِزَة وَالسِّحْر وَالتَّخْيِيل يَحْتَاج إِلَى فِكْر وَنَظَر ، وَقَدْ يُخْطِئ النَّاظِر فَيَعْتَقِدهُمَا سَوَاء.

وَالثَّالِث مَعْنَاهُ أَنَّ مُعْجِزَات الْأَنْبِيَاء اِنْقَرَضَتْ بِانْقِرَاضِ أَعْصَارهمْ وَلَمْ يُشَاهِدهَا إلا مَنْ حَضَرَهَا بِحَضْرَتِهِمْ ، وَمُعْجِزَة نَبِيّنَا ﷺ الْقُرْآن الْمُسْتَمِرّ إِلَى يَوْم الْقِيَامَة ، مَعَ خَرْق الْعَادَة فِي أُسْلُوبه وَبَلَاغَته وَإِخْبَاره بِالْمُغَيَّبَاتِ ، وَعَجْز الْجِنّ وَالْإِنْس عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْله مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ فِي جَمِيع الأَعْصَار ، وَمَعَ اِعْتِنَائِهِمْ بِمُعَارَضَتِهِ فَلَمْ يَقْدِرُوا وَهُمْ أَفْصَح الْقُرُون ، مَعَ غَيْر ذَلِكَ مِنْ وُجُوه إِعْجَازه الْمَعْرُوفَة. وَاَللَّه أَعْلَم.

وَقَوْله ﷺ : (فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ تَابِعًا) عَلَم مِنْ أَعْلام النُّبُوَّة ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلام بِهَذَا فِي زَمَن قِلَّة الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ مَنَّ اللَّه تَعَالَى وَفَتَحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْبِلاد وَبَارَكَ فِيهِمْ ، حَتَّى اِنْتَهَى الأَمْر

[1] رواه مسلم (١٥٢).

وَاتَّسَعَ الْإِسْلام فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَة الْمَعْرُوفَة ، وَلِلَّهِ الْحَمْد عَلَى هَذِهِ النِّعْمَة وَسَائِر نِعَمه الَّتِي لا تُحْصَى ، وَاَللَّه أَعْلَم. انتهى باختصار.

وقال شمس الدين الذهبي رحمه الله في شرح قوله (وإنما كان الذي أُوتيت وحيا أوحى الله إلي):

هذه هي المعجزة العظمى ، وهي القرآن ، فإن النبي من الأنبياء عليهم السلام كان يأتي بالآية وتنقضي بموته ، فقَلَّ لذلك من يتَّبِعه ، وكَثُرَ أتباع نبينا ﷺ لكون معجزته الكبرى باقية بعده ، فيؤمن بالله ورسوله كثيرٌ مِمَّن يسمع القرآن على مر الأزمان ، ولهذا قال: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة. انتهى.[1]

وقال ابن حجر في «الفتح» في شرح الجملة المتقدمة: أي أن معجزتي التي تحديت بها ؛ الوحي الذي أُنزِل علي ، وهو القرآن ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختُص بها دون غيره. انتهى مختصرا.

وقد تقدم في الركن الثالث بيان وجوه إعجاز القرآن وخصائصه.

[1] «سير أعلام النبلاء» ، قسم السيرة النبوية ، (٣٥١/٢٧) ، باب جامع في دلائل النبوة ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

فصل في بيان نواقض الإيمان بالرسل

اعلم رحمك الله أنه كما أن الإيمان بالرسل لا يتحقق إلا بأمور ؛ فإن الإيمان بهم ينتقض بأمور:

الأول: تكذيبهم ، أي تكذيب أنهم رسل من عند الله وإن كان التكذيب متعلق برسول واحد ، لأن الإيمان بواحد منهم يقتضي الإيمان بالجميع ، والتكذيب بواحد منهم يقتضي التكذيب بالجميع ، وهذا الناقض حاصل في جميع الأمم من عهد نوح إلى قيام الساعة.

الثاني: تكذيب ما جاؤوا به ولو كان جزءا من الشريعة ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بما جاء به النبي ﷺ ، ولكنه لم يؤمن بأنه خاتم الأنبياء ؛ فهذا في الحقيقة لا يعتبر مؤمنا بالنبي ﷺ ، لأن الإيمان بالنبي ﷺ يقتضي الإيمان بما جاء به وعدم تكذيبه في شيء منه ولو كان شيئا واحدا.[1]

الثالث: عدم الانقياد لشريعتهم ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بأن محمد ﷺ مرسل من ربه ، ولكنه أبى العمل بشريعته ، فإن هذا الرجل لا يُعد مؤمنا حتى ينقاد لشريعته ، فإن دليل الإيمان العمل ، ولهذا فإن أبا طالب عم النبي ﷺ لا يُعتبر مسلما مع كونه آمن بأن ابن أخيه رسول من عند الله حقا ، وما ذاك إلا لأنه أبى الانقياد لشريعته تقليدا لقومه ولئلا يُعيره الناس بترك دين الآباء والأجداد.

الرابع: إيذاؤهم ، بسببهم أو الاستهزاء بهم أو تنقصهم أو التعدي عليهم في حياتهم ، وهذا الفعل كفر ، قال تعالى ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾[2].

---

[1] يراجع للفائدة كتاب «المتنبئون في الإسلام وخطرهم على الفكر والمجتمع» ، د. غالب بن علي عواجي ، الناشر: دار النصيحة – المدينة.

[2] سورة التوبة: ٦٥ – ٦٦ .

ويدخل في تنقص الأنبياء تفضيل من ليسوا بأنبياء عليهم ، كتفضيل غلاة الصوفية للأولياء على الأنبياء ، وهذا كفر ، لأنه يقتضي تكذيب القرآن ، لأن الله فضل الأنبياء على العالمين ، فقد قال الله تعالى بعد أن ذكر عددا من الأنبياء ﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾[1].

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: لا إشكال أن النبي أفضل من الولي ، وهذا أمر مقطوع به عقلا ونقلا ، والصائر إلى خلافه كافر ، فإنه أمر معلوم من الشرائع بالضرورة.[2]

وممن قال بتفضيل الأولياء على الأنبياء الحكيم الترمذي في كتابه «ختم الأنبياء» ، وكذلك الصوفي الضال ابن عربي.

الخامس: الغلو فيهم ، أي تعظيمهم فوق الحد الشرعي ، بصرف شيء من العبادات لهم ، كدعائهم والسجود لهم والطواف بقبورهم والذبح لهم ، أو وصفهم بشيء من صفات الرب عز وجل ، كادعاء أنهم يعلمون الغيب ، أو يتصرفون في الكون ، ونحو ذلك ، فهذه كله شرك في العبادة وفي أسماء الله وصفاته.

تنبيه

الغلو في الصالحين من أعظم أسباب الانحراف ، سواء كان في حق من كانوا أنبياء أو من ليسوا بأنبياء ، وهو الذي أدى بكثير من الأمم إلى الوقوع في الشرك ، بدءا من أمة نوح إلى أمة محمد ﷺ ، فقد كان منشؤ الشرك في عهد نوح عليه الصلاة والسلام من تعظيم الصالحين ، كما في

---

[1] سورة الأنعام: ٨٦ .

[2] «المفهم على صحيح مسلم» (٦/٢١٧) ، الناشر: دار ابن كثير – دار الكلم الطيب ، الطبعة الأولى.

صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى ﴿وقالوا لا تذرُن آلهتكم ولا تذرُن ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾[1] قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا[2] أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالِسهم التي كانوا يجلسون أنصابا[3] ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم[4] عُبدت.[5]

وروى ابن جرير بإسناده إلى الثوري عن موسى عن محمد بن قيس أنه قال عن يغوث ويعوق ونسرا: كانوا قومًا صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، **فعبدوهم**.[6]

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء[7] قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.[8]

وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام في قوم نوح تتابع الناس على ذلك وانتشر بينهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ[1] ، أما وُد فكانت

---

[1] سورة نوح: ٢٣ .

[2] أي ماتوا.

[3] أي اصنعوا أنصابا ، وهي تماثيل تصنع على هيئتهم ثم تنصب في المجالس ليراها الناس فيقتدوا بهم في أفعالهم! وهكذا دخل عليهم الشيطان.

[4] أي تحول من حال إلى حال. انظر «النهاية». قال مقيده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

[5] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[6] «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

[7] أي ودًّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا.

[8] «إغاثة اللهفان» ، (١/١٨٤) ، تحقيق محمد حامد الفقي.

لكلب بدومة الجندل[٢] ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحِمير لآل ذي الكلاع.[٣]

وقال قتادة: كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، **ثم اتخذها العرب بعد ذلك**.[٤]

وبناء على ما تقدم من الحقائق التاريخية ، فقد قرر ابن القيم في «زاد المعاد» أن غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور.[٥]

وقد نهى الله أهل الكتاب من قبلنا عن الغلو عموما ، في الأنبياء وفي سائر أمور الدين ، فلم يستجيبوا فضلُّوا وأضلُّوا ، قال تعالى ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾[٦].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي لا تُجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تُطروا[٧] من أُمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلٰهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلٰها من دون الله ، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً. انتهى كلامه.

---

[١] أي بعد ذلك الزمان ، كما سيأتي في كلامه.

[٢] موضع في شمال جزيرة العرب.

[٣] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[٤] «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

[٥] «زاد المعاد» (٤٥٨/٣) ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

[٦] سورة المائدة: ٧٧ .

[٧] الإطراء هو مجاوزة الحد في المدح.

وقال رحمه الله في تفسير آية النساء ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾:

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال الله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[1].

ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا: عبد الله ورسوله.[2] انتهى.

[1] سورة التوبة: ٣١ .

[2] رواه البخاري (٣٤٤٥) واللفظ له ، وأحمد (٥٥/١) ، والدارمي (٢٧٨٧).

فصل في بيان ثمرات الإيمان بالرسل[1]

الإيمان بالرسل له ثمرات جليلة ، منها:

الأولى: العلم برحمه الله تعالى وعنايته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويُبينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستطيع معرفة ذلك بنفسه.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبليغ رسالته ، والنصح لعباده ، وجاهدوا في سبيل ذلك.

الرابعة: الهداية إلى الدين الصحيح الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى ، وذلك بالعمل بما أمرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الشرائع المنزلة.

الخامسة: الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما جاؤوا به من عبادات ، وسؤالهم عما أشكل من أمور الدين في حياتهم ، والرجوع إلى ورثتهم – وهم العلماء – بعد مماتهم ، كما قال تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[2] ، وقال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[3].

---

[1] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

[2] سورة الأنعام: ٩٠ .

[3] سورة النساء: ٨٠ .

فصل في الرد على شبهة المكذبين بالرسل[1]

وقد كذَّب المعاندون رُسُلَهم ، زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر ، وقد ذكر الله تعالى هذا الزَّعم وأبطله بقوله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رسولا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ ملائكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾[2] ، فأبطل الله تعالى هذا الزَّعم بأنه لا بد أن يكون الرسول بشرًا من جنسهم ، لأنه مُرسلٌ إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزَّل الله عليهم من السماء ملكًا رسولا ، ليكون مثلهم.

[1] هذا الفصل منقول من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

[2] سورة الإسراء: ٩٤- ٩٥ .

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

اليوم الآخِر هو يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يُبعث الناس فيه للحساب والجزاء ، والبعث هو الإخراج ، أي إخراج الناس من قبورهم ، وسمي اليوم الآخِر بذلك لأنه لا يوم بعده ، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم.

وأما يوم القيامة فسمي بذلك لأن الناس تقوم فيه لله جل وعلا ، كما قال تعالى ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[1].

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بستة أمور ، نذكرها على سبيل السَّرد ثم نفصل الكلام في كل واحدة منها:

الأول: النَّفخ في الصُّور

الثاني: بعث الخلائق

الثالث: حدوث علامات الساعة الكبرى الأخرى

الرابع: حشر الناس في أرض المحشر

الخامس: الحساب والجزاء

السادس: دخول الجنة والنار

---

[1] سورة المطففين: ٤ – ٦ .

تفصيل

الأول: النَّفخ في الصُّور ، وهو أول علامات الساعة الكبرى ، وبه يكون الإيذان بيوم القيامة ، والصُّور قَرنٌ ينفُخُ فيه ملكُ الصُّورِ نفختين ، ففي الأولى يُصعقُ الخلائق كلهم ويموتون ، دليلها قوله تعالى ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فَواق﴾[1] ، أي: ما لها من إفاقة ورجوع للدنيا.

ثم يُنفخ في الصور النفخة الثانية فيقومون من قبورهم ، كما دل على ذلك قول الله تعالى ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾[2].

فبالنفخة الأولى يموت الأحياء ، وبالنفخة الثانية يحيي الأموات ، وإلى النفختين أشار الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة﴾[3] ، فالراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية ، سميت بذلك لأنها تردُف النفخة الأولى وتتلوها ، وبينهما أربعون سنة[4].

وقد جاء في التنزيل تسمية الصور بالناقور ، كما في سورة المدثر ﴿فإذا نقر في الناقور﴾[5].

الثاني: البعث ، وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية ، والبعث حق ثابت ، دل عليه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[6].

---

[1] سورة ص: ١٥ .

[2] سورة الصافات: ١٩ .

[3] سورة النازعات: ٩ – ١٠ .

[4] انظر «صحيح البخاري» (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥).

[5] سورة المدثر: ٨ .

[6] سورة المؤمنون: ١٥-١٦ .

والدليل من السنة على ثبوت البعث قول النبي ﷺ : ... فيُنزِلُ الله من السماء ماء فينبُتون كما ينبُت البقل ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عَجْبُ الذنب ، ومنه يُرَكَّب الخلق يوم القيامة.[1]

فعندئذ يقوم الناس لرب العالمين ، حفاةً غير منتعلين ، عراةً غير مستترِين ، غُرلاً غير مختتنين ، بُهماً ، أي ليس بهم شيءٌ من العاهات التي تكون في الدنيا كالعرج والعمى ونحوها ، قال الله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[2].

وبموجَب الأدلة الواردة في الكتاب والسنة أجمع المسلمون على ثبوت البعث.

والحكمة تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا يجازيهم فيه على ما كلَّفهم به على ألسنة رسله ، قال الله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[3].

الثالث: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر حدوث علامات الساعة الكبرى غير النفخ في الصور وبعث الخلائق ، ومن ذلك زلزلة الأرض ، فإنه مما يكون من الأهوال يوم القيامة حدوث زلزال حسي للأرض كما في قوله تعالى ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ ، وقوله ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾[4].

[1] جزء من حديث رواه البخاري (٤٩٣٥).

[2] سورة الأنبياء: ١٠٤ .

[3] سورة المؤمنون: ١١٥ .

[4] سورة الواقعة: ٤ .

ومن علامات الساعة الكبرى تَشقُّق السماء كما قال تعالى ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدِّهان﴾[1] ، أي تكون كالجلد الأحمر ، لأن الوردة حمراء ، والدهان هو الجلد.

وفي آية أخرى شبَّه الله السماء في ذلك اليوم بالمُهل في قوله ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾[2] ، أي الشيء الذائب.

وفي ذلك اليوم تُطحن الجبال طحنا فتتفتت حتى تكون كالرمل المتهايل أو الصوف المنفوش ، كلا الوصفين متقارب ، فأما طحن الجبال فمذكور في قوله تعالى ﴿وبُسَّت الجبال بسا﴾[3] ، وأما تفتتها فمذكور في قوله تعالى ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وقوله ﴿وكانت الجبال كثيبا مهيلا﴾[4].

وفي ذلك اليوم تُسيَّر الجبال عن أماكنها حتى تُرى كالسَّراب ، قال تعالى ﴿وسُيرت الجبال فكانت سرابا﴾[5] ، وقال تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[6].

ومن علامات الساعة الكبرى تكوير الشمس ، قال تعالى ﴿إذا الشمس كورت﴾ ، وتكوير الشمس هو لَفُّها فتكون كالعمامة ، ثم تُرمى فيذهب ضوؤها.[7]

---

[1] سورة الرحمٰن: ٣٧ .

[2] سورة المعارج: ٨ .

[3] سورة الواقعة: ٥ .

[4] سورة المزمل: ١٤ .

[5] سورة النبأ: ٢٠ .

[6] سورة النمل: ٨٨ .

[7] انظر تفسير ابن جرير رحمه الله للآية.

ومن علامات الساعة الكبرى انكِدار النجوم ، أي تساقطها بعدما كانت عالية في السماء ، قال تعالى ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾.

ومن علاماتها تسجير البحار نارا ، قال تعالى ﴿وإذا البحار سجرت﴾ ، فسبحان من بيده القدرة على قلب قوانين الطبيعة إلى خلافها بأمره الكوني القدري ﴿إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾.

الرابع: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر حشر الناس إلى أرض المحشر ، والحشر هو سَوقٌ الخلائق بعد بعثهم من قبورهم وجمعهم في أرض المحشر ، ودليل الحشر قوله تعالى ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: يا أيها الناس ، إنكم تُحشرون إلى الله حفاة عراة غُـرْلاً.[3]

فيُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ، عفراء[4] ، ليس فيها مَعْلَمٌ[5] لأحدٍ[6] ، يُسمِعُهم الداعي[7] ويَنفُـذُهُم البصر[8] ، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.[9]

---

[1] سورة المؤمنون: ٧٩ .

[2] سورة النبأ: ١٨ .

[3] رواه البخاري (٦٥٢٦) ، ومسلم (٢٨٦٠).

[4] عفراء أي بيضاء بياضا ليس بالناصع. انظر «النهاية».

[5] معلم أي علامة ، كعلامات الطريق ونحوه ، وقيل: المعلم الأثر. انظر «النهاية» لابن الأثير رحمه الله.

[6] انظر البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠) ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

[7] أي أنه إذا دعاهم داعٍ فإنهم يسمعونه كلهم لأن الرض ليس فيها ما يمنع نفوذ الصوت من جدار ونحوه.

[8] أي أن البصر يبلغ أولهم وآخرهم لاستواء الأرض وعدم تَكَوُّرِها. انظر «فتح الباري» شرح حديث (٤٧١٢).

[9] برقم (٣٣٦١).

وفي ذلك اليوم يُحشر الإنس والجن والملائكة والبهائم ، فأما حشر الإنس والجن فدليله عموم الآية المتقدمة ، وأما حشر البهائم فدليله قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿وإذا الوحوش حُشرت﴾[2].

وأما دليل حشر الملائكة فدليله قوله تعالى ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾[3] ، فالملائكة يُحشرون يوم القيامة بين يدي الرب صفوفا ، ولكنهم لا يحاسبون ، لكونهم مفطورين على القيام بما أمرهم الله تعالى به وعدم عصيانه ، كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[4].

وبعد الحشر العام الذي يجتمع فيه الناس في أرض المحشر يكون الحشر الخاص ، والذي يُحشر فيه المكذبون للرسل لأجل توبيخِهِم ، دل على ذلك قوله تعالى ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون * حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أمَّاذا كنتم تعملون﴾[5] ، فالحشر الأول عام للناس كلهم لفصل القضاء ، والثاني خاص للمكذبين للرسل

[1] سورة الأنعام: ٣٨ .
[2] سورة التكوير: ٥ .
[3] سورة الفجر: ٢٢ .
[4] سورة التحريم: ٦ .
[5] سورة النمل: ٨٣ – ٨٤ .

لتوبيخهم أمام الناس كلهم[1] ، ومعنى يوزعون أي يُحبس أولهم على آخرهم ليجتمعون ثم يُساقون إلى النار[2].

ومما يحصل في أرض المحشر أربعة أمور:

١. فزع الناس ، ودليله قوله تعالى في مطلع سورة الحج ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾.

وليس المقصود بالزلزلة في هذه الآية الزلزلة الحسية للأرض ، وإنما المقصود هنا شدة هول يوم القيامة كما قال تعالى واصفا يوم الأحزاب ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾[3].[4]

وأما الزلزال الحسي للأرض يوم القيامة فثابت في قوله تعالى ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ ، وقوله ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾[5].

ومن شدة ذلك اليوم وعظيم كَرْبه ؛ فإن فهوم الناس تضطرب وتطيش في تحديد مدة لبثهم في الدنيا ، فمنهم من يقول ﴿إن لبثتم إلا عشرا﴾[6] ، ومنهم من يقول ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل

---

[1] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة النمل ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون﴾.

[2] قاله ابن جرير في تفسير الآية.

[3] سورة الأحزاب: ١١ .

[4] انظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في خاتمة تفسير قوله تعالى من سورة الحج ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ ... الآية.

[5] سورة الواقعة: ٤ .

[6] سورة طه: ١٠٣ .

فاسأل العادين﴾[1] ، وفي آية أخرى يقول الحق عنهم ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾[2].

ومن شدة ذلك اليوم وعظيم هوله ؛ يذهل الناس بعضهم عن بعض ، قال تعالى ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[3].

تنبيه

والذين يُصيبهم الفزع يوم القيامة هم أهل المعاصي من الكافرين والمبتدعين وعصاة المؤمنين ، أما المؤمنين الكُمَّل فلا ، قال تعالى ﴿وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾[4] ، قال الشنقيطي رحمه الله ما محصَّلُه أن هذا يدل بمفهومه على أنه يسير على المؤمنين.[5]

قلت: أي المؤمنين الكُمَّل ، الذين قاموا بطاعة الله واجتنبوا ما حرم الله ، فإن من خاف الله في الدنيا أمَّنه في الآخرة ، ومن أمِنه في الدنيا أفزعه في الآخرة ، قال تعالى عن المؤمنين الصادقين ﴿لا

---

[1] سورة المؤمنون: ١١٣ .

[2] سورة الروم: ٥٥ .

[3] سورة عبس: ٢٤ – ٢٧ .

[4] سورة الفرقان: ٢٦ .

[5] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الفرقان ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾.

يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿أفمن يُلقى في النار خير أمَّن يأتي آمنا يوم القيامة﴾[3].

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾[4]: كان الحساب من ذلك في أوَّله[5] ، وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة[6] ، ، وقرأ ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾.

٢. ومما يكون في أرض المحشر دُنُو الشمس من الخلائق حتى تكون بمقدار مِيل ، قيل مِيل المِكحلة ، وقيل ميل المسافة ، وسواء هذا أو ذاك فالشمس ستكون قريبة جدا من الرؤوس.[7]

فإن قيل: إن الجسم البشري لا يُطيق ذلك!

فالجواب أن الأجسام يوم القيامة تبعث على غير الصفة التي هي عليها في الدنيا ، بل تُبعث بعثا يتناسب مع مواقف القيامة ، فالكافر – مثلا – يكون ضِرسُهُ كجبل أحد ليتناسب مع العذاب ، والدليل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ضِرسُ الكافرِ يوم

---

[1] سورة الأنبياء: ١٠٣ .

[2] سورة النمل: ٨٩ .

[3] سورة فصلت: ٤٠ .

[4] سورة الفرقان: ٢٤ .

[5] أي في أول يوم القيامة.

[6] أي صاروا وقت القيلولة في منازلهم بالجنة.

[7] انظر صحيح مسلم (٢٨٦٤).

القيامة مثل أُحُد ، وعرضُ جِلدِهِ سبعون ذراعا ، وفَخِذُهُ مثل وَرِقان[1] ، ومقعده من النار مثل ما بينِي وبين الرَّبْـذَة[2].[3]

فالخلاصة أن الله تعالى بقدرته يبعث الناس يوم القيامة على خِلقةٍ تتناسب مع الشدائد التي تحصل في ذلك اليوم ، نسأل الله النجاة والعافية.

فإن قيل: هل يَسلمُ أحد من الشمس؟

فالجواب نعم ، هناك أصناف من الناس يَقيهُمُ الله شمس ذلك اليوم ، منهم السبعة الذين يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، وهو ظِلٌّ يَخلُقه الله عز وجل ، فيتَّقي به أصناف من الناس شمس ذلك اليوم ، جعلنا الله منهم ، وهم إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلَّق بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجُـلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: (إني أخاف الله) ، ورجُـلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.[4]

---

[1] وَرِقان جبل بين المدينة ومكة. انظر «النهاية».

[2] الرَّبَذة قرية قرب المدينة. انظر «النهاية».

[3] رواه أحمد (٣٢٨/٢) ، وحسن إسناده محققو «المسند» ، (٣٦٦/٤) ، وهو عند البخاري (٦٥٥١) ومسلم (٢٨٥٢) عن أبي هريرة أيضا بلفظ أخصر من هذا ، وفيه أن عرض جلده مسيرة ثلاثة أيام.

[4] روى هذا الحديث البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والظل ليس محصورا في السبعة ، فهناك أصناف أُخَر من الناس يقيهم الله حر ذلك اليوم ويُظِلهم تحت ظله بسبب أعمال صالحة قاموا بها ، وقد جاء ذلك في أحاديث جمعها ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» في شرح الحديث ، منها إنظار المعسر ، ودليله حديث أبي اليسر رضي الله عنه مرفوعا: من أنظر معسرا أو وَضع عنه ؛ أظله الله في ظله. رواه مسلم (٧٥١٢).

وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه ، انظر الحديث أعلاه.

وقد نظم السبعةَ الذين يظلهم الله في ظله العلامة أبو شامة ، عبد الرحمٰن بن إسماعيل فقال:

وقال النبي المصطفى إنَّ سبعةً ... يُظلُّهم الله الكريم بظلهِ
محبٌّ عفيفٌ ناشئٌ متصدقٌ ... وباكٍ مصلٍّ والإمامُ بعدلهِ[1]

وللفائدة فقد جاء في روايةٍ تخصيصُ الظل بظل العرش ، ولفظها: سبعة يظلهم الله تعالى تحت ظل عرشه... الحديث.[2]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسرا أو وَضع له ؛ أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.[3]

قال الذهبي في «العلو»: وقد بلغ في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر.[4]

فإن قيل: أليست الشمس تُكوَّر في ذلك اليوم ، أي تُلف ثم تُرمى ويذهب ضوؤها؟

فالجواب: بلى ، ولكن هذا يكون بعد موقف الحشر والذي تدنو فيه الشمس ، جمعا بين الآية والحديث.

وانظر للاستزادة كتاب «سطوع الهلال في الخصال الموجبة للظلال» ، لإبراهيم بن عبد الله الحازمي ، الناشر: دار الشريف – الرياض.

[1] نقله ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» في شرح الحديث المتقدم.

[2] رواها البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩٣) ، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٨٤٥) ، وصححها الشيخ ربيع بن هادي المدخلي في كتابه «القول الواضح المبين في المراد بظل الله الذي وعد به المؤمنين العاملين» ، وهو من منشورات مجالس الهدى – الجزائر.

[3] رواه الترمذي (١٣٠٦) ، وصححه الألباني.

[4] «العلو» (١٩١).

٣. ومما يكون في أرض المحشر ورود الناس على حوض النبي ﷺ الذي في أرض المحشر ، فيشرب منه المؤمنون المستقيمون على الشريعة ، ويُذاد عنه صنفان من الناس:

الأول من ارتدوا عن الإسلام ، كالذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ ، ومن ارتد أيضا ممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

والصنف الثاني هم أهل البدَع ، فإنهم يُذادُون – أي يُطردون – عن الحوض كما تُذاد الغريبة من الإبل.[١]

وهذا الحوض يَصُبُّ فيه مِيزابان[٢] من نَهَر[٣] الكوثر الذي بالجنة ، ومعنى الكوثر الخير الكثير ، وطول الحوض مسيرة شهر ، فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، ورائحته أطيب من المسك ، ومذاقه أحلى من العسل ، من يشرب منه شربة فإنه لا يظمأ بعدها أبدا ، يصب فيه ميزابان من الجنة ، أحدهما من ذهب ، والآخر من فضة ، عرضه مثل طوله ، كما بين صنعاء والمدينة.[٤]

قلت: وما أشد حاجة الناس للشرب منه في ذلك اليوم الشديد الحر ، الطويل الوقوف ، فمن أراد أن يشرب من حوض النبي ﷺ يوم القيامة فليُكثر الشرب من شريعته في الدنيا.

---

[١] انظر «صحيح مسلم» (٢٣٠٢).

[٢] الميزاب ويسمى أيضا بالمزراب ، وهو المجرى الذي يُعد ليسيل منه الماء من موضع عال ، كسطح البيت وميزاب الكعبة. انظر «تاج العروس».

[٣] قال النووي رحمه الله في شرح حديث مسلم (١٨٣): أما النهر ففيه لغتان معروفتان ، فتح الهاء وإسكانها ، والفتح أجود ، وبه جاء القرآن العزيز.

[٤] انظر الأخبار الواردة في الحوض في «صحيح البخاري» ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، وكذلك «صحيح مسلم» ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.

وحوض النبي ﷺ موجودٌ الآن ،كما قال النبي ﷺ : وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن.[1]
ولكل نبي حوض[2] ، وهذا من حكمته تعالى ورحمته بعباده ، ليشرب المؤمنون المتبعون للأنبياء السابقين.

٤. ومما يكون في أرض المحشر الشفاعة العظمى ، حيث إن الناس يوم القيامة يطول بهم الموقف ، مؤمنهم وكافرهم ، فيذهبون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند ربهم لبدء الحساب ، ليرى كلٌ سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فيعتذر عنها الأنبياء الخمسة ، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ثم يُحيلهم عيسى ﷺ إلى محمد ﷺ ، فيذهبون إليه فيقول: (أنا لها) ، فيسجد تحت العرش ما شاء الله أن يسجد ، ثم يَفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يَفْتَحهُ على أحد قبله ، ثم يُقال له: (ارفع محمد ، وقُل يُسمع ، واشفع تُشَفَّع ، وسَل تُعطَ) ، فيشفع لأهل الموقف عند الله لبدء الحساب فيقبل الله شفاعته ، فيبدأ الحساب وفصل القضاء بين العباد كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، من لدن آدم إلى قيام الساعة.[3]

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ ، فعن جابر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: أعطيت خمسا **لم يُعطهنَّ أحد قبلي** ؛ نُصِرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعِلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيُّما

[1] رواه البخاري (٦٥٩٠) ومسلم (٢٢٩٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.
[2] رواه الترمذي (٢٤٤٣) عن سمرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٥٨٩).
[3] أحاديث الشفاعة متواترة ، وردت عن جمع من الصحابة في الصحيحين وغيرهما ، انظر «صحيح البخاري» (٤٤٧٦ ، ٤٧١٢ ، ٦٥٦٥ ، ٧٤١٠ ، ٧٤٣٩ ، ٧٤٤٠ ، ٧٥١٠) ، و «صحيح مسلم» (١٩٣ – ١٩٥) عن أنس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وحذيفة ، رضي الله عنهم.

رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحَلْ لأحد قبلي ، **وأُعطيتُ الشفاعة** ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة.[1]

وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الوارد ذكره في قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾[2] ، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخِرون يوم القيامة ، ويغبِطونه عليه ، إذ تكون له المنة على جميع الخلق في بدء الحساب ، مؤمنهم وكافرهم ، إنسهم وجِنُّهم.

وقد حث النبي ﷺ على الدعاء له بنوال هذ المقام المحمود ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء: (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آتِ محمدا الوسيلة والفضيلة ، **وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته**) ؛ حلت له شفاعتي يوم القيامة.[3]

ولِعِظَم شأن هذه الشفاعة ؛ سماها أهل العلم بالشفاعة العظمى ، وهي أوَّل الشفاعات التي تكون يوم القيامة.

وللنبي ﷺ شفاعات أخرى خاصة به وبعضها مشتركة مع غيره ، وسيأتي الكلام عليها بعد الكلام على دخول أهل الكبائر من المؤمنين للنار مراعاة للترتيب الزمني ، لأن تلك الشفاعات تكون بعد دخول الناس الجنة والنار.

وهنا انتهى الكلام عما يكون في موقف الحشر.

---

[1] رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) ، واللفظ للبخاري.

[2] سورة الإسراء: ٧٩ .

[3] رواه البخاري (٦١٤).

الخامس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر ؛ الحساب والجزاء ، والدليل على ثبوتهما قول الله تعالى ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[3].

والحساب والجزاء هو مقتضى الحكمة ، فإن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل ، وفرض على العباد قَبول ما جاؤوا به ، والعمل بما يجب العمل به ، وأوجب قتال المعارضين له ، وأحل دماءهم وذرياتهم ونساءهم وأموالهم ، فلو لم يكن حساب ولا جزاء لكان هذا التشريع من العبثِ الذي يُنزَّه الرب الحكيم عنه.

والحساب حسابان ؛ حسابُ عَرضٍ وحسابُ مناقشةٍ وعذابٍ ، يدل لهذا قول النبي ﷺ : ليس أحد يحاسَب يوم القيامة إلا هَلَك.

فقالت عائشة: يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾[4]؟

فقال رسول الله ﷺ : إنما ذلك العرْض ، وليس أحد يُناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب.[5]

---

[1] سورة الغاشية: ٢٥- ٢٦ .

[2] سورة الأنعام: ١٦٠ .

[3] سورة الأنبياء: ٤٧ .

[4] سورة الانشقاق: ٧ .

[5] رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦) عن عائشة رضي الله عنها.

وقد جاء ذكر حال الصِّنفين في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال: إن الله يُدنِي المؤمن فيضَع عليه كَـنَفَه[1] ويَستُرُه ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟
فيقول: (نعم أيْ رب) ، حتى إذا قرَّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك قال: (سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم) ، فيُعطى كتابَ حَسناتِه.

وفي ذلك اليوم توزن أعمال الناس بموازين لإظهار عدل الله في الناس ، قال تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[2].

والناس إذا دُعوا إلى حسابهم جثوا على ركبهم مما أصابهم من الهم ، قال تعالى في سورة الجاثية ﴿وترى كل أمة **جاثية** كلُّ أمة تُدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[3].

فإن قيل: وما الجمع بين ما ورد من سؤال الله الناس يوم القيامة عن ذنوبهم وبين قوله تعالى ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾؟
فالجواب أن السؤال المنفي في هذه الآية هو سؤال الاستِعلام والاستِخبار لأن الله أعلم بذنوب الناس منهم.

---

[1] كنَفه أي ستره ، وقيل رحمته ولطفه. انظر «النهاية».

[2] سورة الأنبياء: ٤٧ .

[3] سورة الجاثية: ٢٨ – ٢٩ .

وأما السؤال المُثبت في النصوص الأخرى فهو إما للتوبيخ والتقريع كما في قوله تعالى ﴿فأما الذين اسودَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ ، وإما لإظهار ستره وفضله على المؤمن كما في حديث ابن عمر المتقدم.[1]

فصل

وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله صلاتُهُ ، فإن صَلحت صَلَحَ سائرُ عمله ، وإن فسدت فَسد سائرُ عمله.[2]

وأول ما يحاسب عليه العبد فيما يتعلق بحقوق الآدميين الدماء ، لقول النبي ﷺ : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء.[3]

وفي ذلك اليوم تشهد أعضاء الإنسان عليه إذا أنكر ما عمله من السيئات ، فيشهدُ عليه سمعه وبصره وجلده ، قال تعالى ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يكسبون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾[4].[5]

---

[1] انظر «أضواء البيان» للشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى من سورة الرحمٰن ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ ، وتفسير قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ ، وانظر أيضا ما قاله في «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» عند الكلام على الآية نفسها من سورة الأعراف.

[2] رواه الطبراني في الأوسط (١٨٨٠) ، (الناشر: دار الحديث – القاهرة) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٣٥٨).

[3] رواه البخاري (٦٥٣٣) ومسلم (١٦٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنه.

[4] سورة فصلت: ١٩ – ٢١ .

[5] انظر صحيح مسلم (٢٩٦٨).

وقال الحسن البصري في قول الله تعالى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[1]: يا ابن آدم ، أَنصَفَك من خَلقك ، جَعَلَكَ حسيبَ نفسِك.[2]

قال ابن كثير في تفسيره: هذا من حُسن كلام الحسن رحمه الله.

وروى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن قتادة في قول الله تعالى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا.

وفي ذلك اليوم يُستثنى من الحساب سبعون ألفا ، لا حساب عليهم ولا عذاب – جعلنا الله منهم – وهم المؤمنون الكُمَّل ، الذين قاموا بما أوجب الله عليهم من الطاعات ، وسارَعوا في الخيرات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وقد جاء ذكرهم وصفتهم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في الصحيحين.[3]

وقد جاء في حديث آخر ما يدل على أن المشمولين بهذا الفضل أكثر من هذا العدد ، فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: وعدني ربي أن يُدخِلَ الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفا ، وثلاث حثيات من حثياته.[4]

اللهم اجعلنا منهم ، آمين.

---

[1] سورة الإسراء: ١٤ .

[2] رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٦٣).

[3] انظر صحيح البخاري (٦٥٤١) ، ومسلم (٢٢٠) والترمذي (٢٤٤٦) وأحمد (٢٧١/١).

[4] أخرجه الترمذي واللفظ له (٢٤٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٨٦) وأحمد (٢٥٠/٥) وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٩) والطبراني في «الكبير» (٧٥٢٠ ، ٧٦٦٥ ، ٧٦٧٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وصحح إسناده الألباني رحمه الله كما في «الصحيحة» (١٩٠٩).

والحساب يشمل الجن والإنس ، فإن الجن داخلون في عموم الرسالة كما هو معلوم ، وهم مكلَّفون ، قال تعالى ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾[1] ، وقال في حور الجنة ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾[2] ، فدلت الآية على أن في الجنة جِنًّا ، دخلوها كما دخلها الإنس لما استجابوا لرسلهم.

وفي ذلك اليوم يَقتَصُّ الله من البهائمِ بعضها لبعض ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لتؤدَّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد[3] للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.[4]

أي يُقتص للشاة التي لا قرون لها من ذات القرون التي نطحتها ، فسبحان من أبهر بعدله وحكمته العقول.

وهنا انتهى الكلام على موقف الحساب والجزاء.

السادس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما المآل الأبدي للخلق ، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين ، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به ، وقاموا بطاعة الله ورسوله ، مخلصين لله متبعين لرسوله ، فيها من أنواع النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

[1] سورة الأعراف: ٣٨ .

[2] سورة الرحمٰن: ٧٤ .

[3] يُقاد للشاة أي يُقتص لها. انظر «النهاية».

[4] رواه مسلم (٢٥٨٢).

رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

والجنة مئة درجة ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: الجنة مئة درجة ، ما بين كل درجتين مسيرة مئة عام ، وقال عفان[3]: كما بين السماء إلى الأرض – ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة[4] ، والعرشُ من فوقها ، وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس.[5]

وأما النار فهي دار العذاب التي أعدها الله تعالى لصنفين من الناس ؛ عصاة المؤمنين ، والكافرين ، فيها من أنواع العذاب والنَّكال ما لا يخطر على البال ، قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾[6] ، وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾[7].

فالكافرون يبقون في النار إلى أبد ، وأما عُصاة المؤمنين فيعذبون فيها إلى أمد ، يُعذَّبون فيها بقدر ذنوبهم التي وقعوا فيها ، كخطايا اللسان ، أو الفرج ، أو قطيعة الرحم ، أو السماع المحرم ، أو النظر

---

[1] سورة البينة: ٧ – ٨ .

[2] سورة السجدة: ١٧ .

[3] عفان هو أحد رواة الحديث.

[4] أنهار الجنة أربعة أجناس: الماء واللبن والخمر والعسل ، وقد جاء ذكر ذكرها في قوله تعالى في سورة محمد ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾.

[5] رواه أحمد (٣١٦/٥) ، وصحح إسناده محققو «المسند».

[6] سورة الكهف: ٢٩ ، وللفائدة فمعنى سُرادقها أي جدارها ، وقيل غير ذلك. انظر معنى الآية في «تفسير الطبري».

[7] سورة الأحزاب: ٦٤– ٦٦ .

المحرم ، أو أكل مال محرم ونحو ذلك ، غير أن النار لا تمس أعضاء السجود ، وفي هذا تشريفٌ لعبادة الصلاة ، فمنهم من يعذب في النار إلى قدمه ، ومنهم من يغيب إلى أنصاف ساقيه ، فإذا تم استحقاقهم من النار فإنهم يُخرجون منها وقد امتُحِشوا[١] ، فيُلقَونَ في نَهَرٍ بأفواهِ الجنةِ[٢] يقال له ماء الحياة ، فينبُتون كما تنبُتُ الحِبَّةُ[٣] في حمِيلِ السَّيلِ ، أي جانبه.[٤]

فإذا طُهِّرَ عصاةُ المؤمنين من ذنوبهم أُخرِجوا إلى الجنة.

فصل في صفة النار

وجهنم عظيمة البنيان ، فظيعة المنظر ، شديدة الحر ، فأما عِظَم بنيانها فمستفاد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زِمام[٥] ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يَجرُّونها.[٦]

وأما فظاعة منظرها فمعلوم من قول الله تعالى ﴿إنها لترمي بشرر كالقصر﴾ ، فشرار النار في حجمه كالقَصْر ، جمع قَصَرة ، وهي أصل الشجرة[٧] ، فشرارة النار المتطايرة منها كحجم الواحدة من أصول الشجر ، نعوذ بالله منها.

---

[١] أي احترقوا ، والمَحْش احتراق الجلد وظهور العظم. انظر «النهاية».

[٢] أفواه جمع فُوَّهة ، وأفواه الجنة أي أوائلها. قاله النووي رحمه الله في شرح حديث مسلم (١٨٣).

[٣] الحِبَّة – بكسر الحاء – بزور البقول وحب الرياحين ، بخلاف الحَبة – بفتح الحاء – فهي الحنطة والشعير ونحوهما. انظر «النهاية».

[٤] انظر «صحيح البخاري» (٧٤٣٧ ، ٧٤٣٩) ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٥] الزِّمام هو الحبل الذي تُربط فيه الناقة ونحوها مما يُقاد. انظر «لسان العرب».

[٦] انظر «صحيح مسلم» (٢٨٤٢).

[٧] انظر تفسير الآية عند ابن جرير الطبري في «تفسيره».

وأما شدة حرها فيدل له قول النبي ﷺ : ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم.
قيل: يا رسول الله ، إن كانت لكافية.
قال: فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها.[1]

ولجهنم سبعة أبواب ، يدخل من كل باب من تلك الأبواب نصيب مقسوم معلوم من الناس ، قال تعالى ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾[2].

فصل

وطعام أهل النار يختلف بحسبهم ، إذ أهل النار يتفاوت عذابهم فيها بحسب سيئاتهم كمًّا وكيفًا ، فمِن أهل النار من طعامه الغِسلين ، قال تعالى ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾[3] ، والغسلين هو ما يسيل من صديد أهل النار من غُسالة القروح.

ومنهم من طعامه الضَّريع ، وهو نبات الشَّبرق اليابس ، قال تعالى ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾[4].

ومنهم من طعامه الزَّقوم ، قال تعالى ﴿إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم﴾[5].[6]

---

[1] رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ للبخاري.
[2] سورة الحجر: ٤٣ – ٤٤ .
[3] سورة الحاقة: ٣٦ .
[4] سورة الغاشية: ٦ .
[5] سورة الدخان: ٤٣ – ٤٦ .
[6] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الحاقة ، قوله تعالى ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾.

والزقوم شجرة تخرج في أصل الجحيم ، كريهة المنظر ، كريهة المأكل ، قال تعالى ﴿أذلك خير نزلا أم شجرة الزقزم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾[1].

وأما شراب أهل النار فإنهم يُسقون من الحميم – وهو الماء الحار – ويُصبُّ عليهم منه من فوق رؤوسهم ، فيُعذبون به من خارج أجسامهم وفي داخل أجوافهم ، فتنصهر جلودهم وتتقطع أمعاؤهم ، قال تعالى ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم * يُصهر به ما في بطونهم والجلود﴾[2] ، وقال تعالى ﴿وسُقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾[3].

وهناك أنواع أخرى من الأشربة يُسقى بها أهل النار ، قد أشار الله تعالى إليها في قوله ﴿هذا فليذوقوه حميم وغسَّاق * وآخر من شكله أزواج﴾[4] ، والغسَّاق هو ما يَقطِرُ من جلود أهل النار ، ذكره الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات ألفاظ القرآن».

وأشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة أصناف ؛ آل فرعون ، وهم فرعون وأتباعه ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، والمنافقون ، والدليل على ما تقدم قول الحق تبارك وتعالى ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[5] ، وقوله تعالى عن أصحاب المائدة ﴿فمن يكفر بعد منكم فإني

---

[1] سورة الصافات: ٦٢ – ٦٦ .

[2] سورة الحج: ١٩ .

[3] سورة محمد: ١٥ .

[4] سورة ص: ٥٧ – ٥٨ .

[5] سورة غافر: ٤٦ .

أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾[1] ، وقوله تعالى عن المنافقين ﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾[2].

فصل

والناس كلهم يرِدون النار أي يَمُرُّون عليها ، مؤمنهم وكافرهم ، كما قال تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾[3] ، ولكن من أراد الله نجاته من المؤمنين فإن النار لا تمسُّه ، بل يمر من فوقها على الصراط ولا تمسُّه بسوء ، أما من أراد الله عذابه من المؤمنين والكافرين فإن الكلاليب المعلقة بالصراط تخطِفُه وتُلقيه في النار ، فأما المؤمنين فيعذبون فيها بقدر معاصيهم ثم يخرجون إلى الجنة ، وأما الكافرين فيبقون فيها أبد الآباد ، وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية بعدها ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيا﴾[4].[5]

ومعنى الجِثِيِّ في الآية هو البُروك على الركب ، وهو شرُّ الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثيا إلا إذا نزل به كرب.[6]

---

[1] سورة المائدة: ١١٥ .

[2] سورة النساء: ١٤٥ .

[3] سورة مريم: ٧١ .

[4] سورة مريم: ٧٢ .

[5] انظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة من سورة مريم.

[6] انظر تفسير ابن جرير للآية الكريمة.

وأهل النار يُساقون إليها عِطاشا كما قال تعالى ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِردا﴾[1] ، أي عِطاشا ، فإن أصل الوِرد هو الاتيان إلى الماء ، ولما كان الاتيان إلى الماء لا يكون إلا من عطشٍ أُطلق اسم الورد على الجماعة العطاش ، قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

وفي ذلك اليوم يكون لأهل النار علاماتٌ تَعرفهم بها ملائكة النار ، فإذا عرفَتْهُم أمسَكَتْهم بنواصيهم — والناصية هي مُقدَّم شعر الرأس – وأقدامِهِم ، ثم تقذفهم في النار بقوة وعنف عياذا بالله ، قال تعالى ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذُ بالنواصي والأقدام﴾[2] ، وقال تعالى ﴿يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعًّا﴾[3] ، ومعنى يُدعُّون أي يدفعون فيها بقوة وعنف.

فإن قيل: وما تلك العلامات التي يُعرف بها أهل النار؟

فالجواب أن الله تعالى قد بين في كتابه علاماتِهِم المميزة لهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون كما في قوله ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾[4] ، وقال تعالى ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾[5] ، وقال تعالى ﴿كأنما أُغشِيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾[6] ، وقال تعالى تعالى ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾[7] ، والقترة هي السواد. السواد.

---

[1] سورة مريم: ٨٦ .

[2] سورة الرحمٰن: ٤١ .

[3] سورة الطور: ١٣ .

[4] سورة آل عمران: ١٠٦ .

[5] سورة الزمر: ٦٠ .

[6] سورة يونس: ٢٧ .

[7] سورة عبس: ٤٠ — ٤٢ .

وأما زُرقة العيون فمذكورة في قوله تعالى ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾[1].

أقول: وهذا بخلاف وجوه أهل الإيمان ، فإن وجوههم بيضاء وضيئة ، كما قال تعالى ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ ، ثم قال بعدها ﴿فأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾.

وقال تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾[2] ، أي حسنة مشرقة.[3]

وأهل النار يُسحبون فيها على وجوههم كما في قوله تعالى ﴿يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر﴾[4].

وأهل النار يُلبَسون ثيابا من نار كما في الآية المتقدمة ﴿فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثياب من نار﴾[5] ، ، ويُلبسون أيضا أقمصةٍ من نحاس ملهَبٍ بالنار كما في قوله ﴿سرابيلهم من قَطِران﴾[6] ، والسرابيل هي القُمُص ، جمع قميص ، والقَطِران هو النحاس المذاب بالنار.

---

[1] سورة طه: ١٠٢ .

[2] سورة القيامة: ٢٢ .

[3] انظر «المعجم الوسيط».

[4] سورة القمر: ٤٨ .

[5] سورة الحج: ١٩ .

[6] سورة إبراهيم: ٥٠ .

وأهل النار يُضربون فيها بمطارق من حديد كما قال تعالى ﴿ولهم مقامع من حديد﴾[1] ، والمقامع في اللغة جمع مِقمعة ، وهي حديدة كالمحجن يُضرب بها على رأس الفيل ، ومعناها في الآية مرزبة عظيمة من حديد — وتعرف في زماننا بالمطرقة – تَضرب بها خزنة النار أهلها عياذا بالله ، ذكره الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

والحكمة من عذاب الله لأهل النار من المؤمنين تطهيرهم من الذنوب ، ثم يؤويهم الله بعد ذلك لجنته ، إذ الجنة طيبة فلا يدخلها إلا نفس طيبة ، والذنوب نجسة ، فوجب التطهير منها أولا ، وأما الكافر فإن الحكمة من عذاب الله له إهانته وخزيه ، ولا يترتب على ذلك تمحيص ولا تطهير ، لأن الخُبث متأصل فيه لا يزول بالنار ، فيبقى فيها أبد الآباد عياذا بالله.[2]

فصل

والنار أعاذنا الله منها تُبصر وتَشهق وتَزفِر ، فأما الإبصار فورد في قوله تعالى ﴿إذا **رأتهم** من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾[3] ، أي إذا رأت النار الكفار وهم في المحشر سمِعوا تغيظها وهو صوت الغليان ، وسمعوا زفيرها وشهيقها ، وهما صوتان معلومان ، والله أعلم بكنهِهِما.

والنار تضطرم وتخبو كما قال تعالى ﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾[4].

---

[1] سورة الحج: ٢١ .

[2] انظر «أضواء البيان» في الكلام على تفسير قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿ولهم عذاب مهين﴾ ، الآية: ٩ .
وانظر كذلك «دفع إيهام الاضطراب» في خاتمة كلامه على قول الله تعالى ﴿قال النار مثواكم فيها إلا ما شاء الله﴾ ، الأنعام: ١٢٨ .

[3] سورة الفرقان: ١٢ .

[4] سورة الإسراء: ٩٧ .

والنار موعودة ملؤها كما قال تعالى ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[1].

فصل في صفة الجنة

الجنة جنان متعددة ، ليست نعيما متساويا ، بل النعيم فيها مُتفاوت ، وأهلها يتفرقون فيها بحسب أعمالهم الصالحة ، فجنتان جميع ما فيهما من ذهب ، وجنتان جميع ما فيهما من فضة ، كما قال تعالى في الجنتين الأُولَيين ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[2] ، ثم قال في الجنتين اللتين هما دونهما في النعيم ﴿ومِن دونهما جنتان﴾[3].

روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن زيد في تفسير هاتين الآيتين ما محصَّلُه أن الجنتين الأُوليين للسابقين المقربين ، والجنتين الأُخريين للأبرار أصحاب اليمين.

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن.[4]

ويحسن هنا التنبيه إلى الفرق بين السابقين والأبرار ، فالسابقون هم القائمون بالفرائض والنوافل المنتهون عن المعاصي والمكروهات ، وأما الأبرار فهم القائمون بالفرائض المنتهون عن المعاصي ، أما النوافل فلم يحرصوا عليها على الوجه الأكمل ، وربما وقعوا في بعض المكروهات ، وأما المعاصي

---

[1] سورة السجدة: ١٣ .

[2] سورة الرحمٰن: ٤٦ .

[3] سورة الرحمٰن: ٦٢ .

[4] رواه البخاري (٧٤٤٤) ومسلم (١٨٠).

فكلا الفريقين منكفٌّ عنها سواء كانت من الصغائر أو الكبائر ، ولكن انكفاف السابقين عنها أعظم.

وتفضيل السابقين على الأبرار في الثواب ظاهر سببه ، فإن السابقين قد بذلوا وسعهم في طاعة الله والحذر من معصية الله ، كما نفع الله بهم غيرهم من الناس ، من دعوة وأمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد وصدقة وإصلاح ذات البين وقيام ليل وبناء مساجد ونحو ذلك.

أما الأبرار فلم يبذلوا أنفسهم بذلا عظيما في هذين السبيلين ، إصلاح النفس وإصلاح الغير ، فكانوا أقل من السابقين في الثواب.

ومن دلائل تفضيل السابقين على الأبرار قوله تعالى عن السابقين ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾[1] ، وقال عن الأبرار ﴿وحُلُّوا أساور من فضة﴾[2].

وكذلك الأمر في الشراب ، فالسابقون — والموصوفون أيضا بالمقربين – يشربون من عين في الجنة تسمى «تسنيم» كما قال تعالى ﴿ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون﴾[3] ، فالمقربون يشربون من عين «تسنيم» ، وأما الأبرار الذين هم دون المقربين في المنزلة فيمزج لهم في شرابهم من عين «تسنيم» ولا يشربون منها صِرفا ، كما قال في الآيات قبلها ﴿إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يُسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ ، ثم قال بعدها وهو الشاهد ﴿ومزاجه من تسنيم﴾.[4]

---

[1] سورة الكهف: ٣١ .

[2] سورة الإنسان: ٢١ .

[3] سورة المطففين: ٢٧ .

[4] انظر ما نقله ابن جرير في تفسيره عن أئمة التفسير في هذه الآية.

والأبرار يُخلط لهم شرابهم بالكافور أو الزنجبيل ، ودليل الكافور قوله تعالى ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾[1] ، أي تمزج بالكافور فتطيب رائحتها ، ومنبع الكافور مذكور في الآية بعدها ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ ، والمقصودون بعباد الله في الآية هم السابقون قطعا ، وهم يشربون منها صرفا.

ودليل الزنجبيل قوله تعالى ﴿ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا﴾[2].

وتأمل قوله ﴿مزاجها﴾ ، ويقال فيه كما قيل في الكافور.

والأبرار – كما تقدم – ليسوا كالسابقين في الابتعاد عن المعاصي والمكروهات ، والإقبال على الفرائض والنوافل ، ومن تأمل سيرة أئمة الإسلام في القديم والحديث علِم أوصافهم استحقاقهم لتلك المنزلة بإذن الله.

وقد أشار الله تعالى إلى الفرق في النعيم بين السابقين المقربين وبين الأبرار أصحاب اليمين في مطلع سورة الواقعة وآخرها فليُرجع إليه.

وأهل الجنة من أهل الوصف الواحد يتفاوتون فيما بينهم ، فالسابقون المقربون يتفاوت بعضهم عن بعض في النعيم بحسب أعمالهم ، وكذلك الأبرار أصحاب اليمين ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم.

قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.

قال بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.[1]

---

[1] سورة الإنسان: ٥ .

[2] سورة الإنسان: ١٧ .

ونعيم أهل الجنة يزداد ولا يبلى ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة ، فتهِب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا ، فيقولون: وأنتم والله ، لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا.

انتهى الكلام هنا على صفة الجنة والنار.

وللفائدة ، فمن أراد التوسع في معرفة الجنة وأوصافها وأوصاف أهلها فعليه بكتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن قيم الجوزية رحمه الله.

فصل في أن الجنة والنار مخلوقتان

والجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض **أُعدَّت** للمتقين﴾ ، والشاهد قوله ﴿أعدت﴾.

والدليل من السُّنةِ قولُ النبي ﷺ لبلال: حدِّثني بأرجى عملٍ عمِلته عندك في الإسلام منفعةً ، فإني سمعت الليلة خَشْفَ[٢] نعليك بين يديَّ في الجنة.[٣]

ومن الأدلة كذلك على أن الجنة مخلوقة الآن قوله ﷺ : أُدخِلت الجنة ، فإذا فيها جَنابِذُ[٤] اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك.[٥]

---

[١] رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

[٢] الخشف هو الحركة والصوت. انظر «المعجم الوسيط».

[٣] رواه مسلم (٢٤٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٤] الجنابذ هي القباب ، واحدتها جَنبَذة.

[٥] قطعة من حديث الإسراء الطويل الذي رواه مسلم (١٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

أما الدليل على أن النار مخلوقة الآن فقوله تعالى ﴿واتقوا النار التي أُعدَّت للكافرين﴾[1] ، والشاهد قوله ﴿أعدت﴾.

ومن السنة أنه ﷺ رأى عمرو بن لُحَي يَجُرُّ قُصْبَه — أي أمعاءه – في النار ، وهو أول من غيَّر دين إبراهيم ، وأتى بالأصنام إلى جزيرة العرب.[2]

ورأى امرأة تعذب في النار في هِرةٍ حبستها ، لا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض[3].[4]

فصل في أن الجنة والنار باقيتان

والجنة والنار باقيتان لا تَبِيدان ولا تَفْنَيان ، والدليل على هذا ظاهر القرآن والسنة ، وقد ورد تأبيد خلود المؤمنين في الجنة وخلود الكفار في النار في عدة مواضع من القرآن ، ومن قال بأنهما تفنيان فقوله ضعيف لا يُعَوَّل عليه ، لأنه خلاف ظاهر النصوص ، وقد خاطب الله الناس بما يفهمون ، فالواجب إمرار النصوص كما جاءت بلا تحريف ولا تكلُّف.[5]

---

[1] سورة آل عمران: ١٣١ .

[2] انظر حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦).

[3] خشاش الأرض أي هوامها وحشراتها ، واحدتها خشاشة. انظر «النهاية» ، مادة خشش.

[4] انظر حديث ابن عمر الذي رواه البخاري (٢٣٦٥) ومسلم (٢٢٤٢).

[5] انظر للاستزادة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «دفع الإيهام» (ص: ١٣٣) عند تفسير قوله تعالى ﴿قال النار مثواكم خالدين فيها فيها إلا ما شاء الله﴾ (الأنعام: ١٢٨).

وانظر كذلك ما قاله في الكتاب نفسه (ص: ٣٣٧) عند تفسير قوله تعالى من سورة النبأ ﴿لابثين فيها أحقابا﴾.

ذكر بعض مشاهد القيامة

هذا فصل مفيد في ذكر بعض مشاهد القيامة ، وتحرير الكلام في بعضها ، وهي كالتالي:

١. تطاير الصُّحُفُ

٢. ضرب الصِّراطُ على متنِ جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه

٣. وقوف أناس على قنطرةٍ بين الجنة والنار

٤. كلام المشركين في مواطن من القيامة وختمُ الله على أفواههم في مواطن

٥. اعتذار الكفار إلى الله تعالى

٦. شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيامة

٧. شفاعات الشفعاء

تفصيل

١. تطايُر الصحف

في ذلك اليوم تتطاير الصُّحُفُ ، أي صحائف الأعمال ، فيأخذها الناس ، فمنهم من يأخذها باليمين وهم أهل الاستقامة ، ومنهم من يأخذها بالشمال وهم الكفار.

والمؤمن يأخذ كتابه وهو فرحٌ مستبشر ، قال تعالى ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾[1].

وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، فكما أنه جعل كتاب الله وراء ظهره ؛ فإنه يعطى كتابه من وراء ظهره ، جزاء وفاقا ، فيأخذه وهو حزين مستحسر ، قال تعالى ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتي كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه﴾[2] ، وقال تعالى ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا * إنه كان في أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا﴾[3].

فإن قيل: ماذا عن المسلم الفاسق مرتكب الكبائر ، الذي استحق دخول النار ، هل يأخذ كتابه بيمينه أم بشماله؟

فالجواب أنه لم يرد فيه هذا دليل صريح ، والذي يظهر أنه إن كان مستحقا لدخول النار فإنه يأخذ كتابه بشماله ، والله أعلم.[4]

---

[1] سورة الحاقة: ١٩ – ٢٤ .

[2] سورة الحاقة: ٢٥ – ٢٩ .

[3] سورة الإنشقاق: ١٠ – ١٥ . ومعنى يحور أي ظن أن لن يرجع إلى الله ويبعث ، لكونه لا يؤمن باليوم الآخر ، وانظر معنى الآية في «تفسير الطبري».

[4] أفادني بهذه الفائدة الشيخ محمد بن علي آدم الأثيوبي حفظه الله.

٢. ضرب الصِّراطُ على متنِ جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه

وفي ذلك اليوم يُضربُ الصِّراطُ على متنِ جهنم أي ظهرِها ، ثم يَمُرُّ عليه الناس ، وهو مَدحَضةٌ مَزِلَّـة ، أي تزلِق عليه الأقدام ولا تثبت[١] ، عليه خطاطيف[٢] وكلاليب[٣] ، وحَسَكةٌ مُفلطحةٌ – أي شوكة صلبة فيها عُرضٌ واتِّساع[٤] – ، على رأسها شوكةٌ عَـقِيـفَةٌ – أي ملتوية كالصنارة[٥] – تكون بنَجدٍ ، يُقال لها السَّعدان ، فإذا مرَّ الناس عليها صاروا ثلاثة أصناف: إما ناجٍ مُسَلّمٌ ، أو ناجٍ مخدوشٌ ، أو مكدوسٍ – أي مدفوعٍ – في نار جهنم ، فالخطاطيف والكلاليب والأشواك ينجو منها أناس ويسلمون من خدشِها وإمساكِها ، وهم المؤمنون الكُمَّل الذين قاموا بطاعة الله واجتنبوا معاصي الله.

والصنف الثاني من الناس تخدِشُهم ولكن يَسلَمون من إمساكها بهم ويعبرون الصراط ، وهم الذين عندهم معاصي لم تستوجب دخول النار ، بل الخدش هو عقوبتهم في الآخرة فحسب ثم ينجون.

والصنف الثالث هم الذين تخطِفُهم وتهوي بهم إلى النار بدفع وقوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين استحقوا دخول النار بسبب ما عندهم من المعاصي والكبائر ، فالكلاليب تخطِفُهم وتهوي بهم في نار جهنم عياذا بالله ، وكذلك الأمر بالنسبة للكافرين ، فإنهم تخطفهم الكلاليب ثم تلقي بهم في النار من باب أولى.

---

[١] انظر «النهاية».

[٢] خطاطيف جمع خطَّاف ، وهو الحديدة المعوجة كالكلوب ، يُختطف بها الشيء. انظر «النهاية».

[٣] الكلاليب جمع كلُّوب ، بتشديد اللام ، وهو حديدة معوجة الرأس. انظر «النهاية».

[٤] انظر «النهاية» و «لسان العرب».

[٥] انظر «النهاية».

وسُرعةُ الناس على الصِّراط ليست باختيارهم ، بل بحسب أعمالهم ، كما جاء في الحديث (تجري بهم أعمالهم)[1] ، فمن كان عمله صالحا حسناً مرَّ سريعا ، وسرعة الواحد بحسب عمله ، فمنهم من يَمُرُّ على الصِّراط كطرف العين ، ومنهم من يَمُرُّ كالبرق ، ومنهم من يَمُرُّ كالريح ، ومنهم من يَمُرُّ كالطير ، ومنهم من يَمُرُّ كأجاويدِ[2] الخيل والرِّكاب ، ومنهم من يمر كعدو الرجال ، حتى يمرُّ آخرهم يُسحبُ سحباً.

ومن ساء عمله مرَّ بطيئا ، وربما خَطَفته الكلاليب إن كان ممن استحق النار.

والدليل على ما تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في الصحيحين[3] ، وكذا حديث أبي سعيد الخدري المخرج في الصحيحين[4] ، وقد تركنا ذكرهما طلبا للاختصار.

٣. وقوف أناس على قنطرة بين الجنة والنار

وفي ذلك اليوم يقف المؤمنون الذين عُذِّبوا في النار بعد خروجهم منها على قنطرةٍ – أي جسرٍ – بين الجنة والنار ليتخلصوا مما علِق بقلوبهم من الغِلِّ والحسد والبغضاء ، فلا يدخلون الجنة إلا وقد طَهُرت قلوبهم ، فقد أخرج البخاري رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾[5] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يَخلُصُ المؤمنون من النار[6] ،

---

[1] انظر «صحيح مسلم» (١٩٥) عن حذيفة رضي الله عنه.

[2] أجاويد جمع جواد ، وهو الفرس السابق الجيد. انظر «النهاية».

[3] انظر صحيح البخاري (٧٤٣٧) وصحيح مسلم (١٨٢).

[4] انظر صحيح البخاري (٧٤٣٩) وصحيح مسلم (١٨٣).

[5] سورة الحجر: ٤٧ .

[6] أي يسلَمون منها فيخرجون بعدما نشِبوا فيها. انظر «لسان العرب».

، فيُحبَسون على قنطرةٍ بين الجنة والنار ، فيُقتصُّ لبعضهم من بعضٍ مظالمَ كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُـقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ؛ لأحدُهم أهدى بمنزِله في الجنة مِنهُ بمنزلِـهِ كان في الدنيا.[1]

قال ابن تيمية رحمه الله: فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء ، والتهذيب هو التخليص كما يُهذَّب الذهب فيُخلَّص من الغش ، فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب و التنقية من بقايا الذنوب.[2]

٤. كلام المشركين في مواطن وختمُ الله على أفواههم في مواطن

وفي ذلك اليوم يتكلم المشركون في مواطن ، ومن ذلك ما أشار إليه الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز في قوله على لسانهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[3].

ثم يَختم الله على أفواههم فتتكلم الأيدي والأرجل ، كما في قوله تعالى ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[4].[5]

---

[1] رواه البخاري (٦٥٣٥).

[2] انظر «فتاوى ابن تيمية» (١٤/٣٤٤ – ٣٤٥) ، باختصار.

[3] سورة الأنعام: ٢٣ .

[4] سورة يٰس: ٦٥ .

[5] وانظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «دفع إيهام الاضطراب» (ص ٩٠) في الكلام على قوله تعالى ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ (النساء: ٤٢).

وفي ذلك اليوم يُكلِّم الله الكفار تقريعا وتوبيخا كما في قوله تعالى ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾[1].

فإن قيل: وما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن الكفار ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾[2]؟

فالجواب ما اختاره الشنقيطي رحمه الله أن الكلام الذي نفاه الله هو الكلام الذي فيه خير ، وأما التوبيخ والتقريع والإهانة فإن الله يكلمهم به ، وهو من جنس عذابه لهم.[3]

٥. اعتذار الكفار إلى الله تعالى

وفي ذلك اليوم يعتذر الكفار إلى الله تعالى كما في قوله ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾[4] وقوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[5].

فإن قيل: وما وجه الجمع بين ما أثبته الله في هذه الآية من اعتذار المشركين إليه وبين قوله تعالى ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾[6]؟

فالجواب من وجهين ذكرهما الشنقيطي رحمه الله:

---

[1] سورة المؤمنون: ١٠٧ .

[2] سورة البقرة: ١٧٤ .

[3] انظر «دفع إيهام الاضطراب» (ص ٣٩) في الكلام على قوله تعالى ﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾.

[4] سورة النحل: ٢٨ .

[5] سورة الأنعام: ٢٣ .

[6] سورة المرسلات: ٣٦ .

الأول: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم تعالى ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق كما قال تعالى ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾[1].

الثاني: أن يكون الاعتذار المنفي هنا هو الاعتذار الذي فيه فائدة ، ولما كان اعتذارهم ليس فيه فائدة كان كالعدم ، فلذا نفى الله وجوده في قوله تعالى ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.[2]

٦. فصل في شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيامة

ومما يكون يوم القيامة شفاعات النبي ﷺ ، وهي أربع شفاعات غير الشفاعة العظمى التي تقدم ذكرها:

فأولها شفاعتُه ﷺ للمؤمنين في دخول الجنة ، فإن المؤمنين إذا أتوا الجنة وجدوا أبوابها مغلقة ، فعندئذ يطرق النبي ﷺ باب الجنة ، فيقول خازن الجنة[3]: من أنت؟

فيقول: محمد.

فيقول: بك أُمِرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلك.[4]

---

[1] سورة النمل: ٨٥ .

[2] انظر «أضواء البيان» في الكلام على تفسير قوله تعالى في سورة النحل ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾.

[3] الخازن هو الحافظ للشيء ، وقد اشتُهر تسمية خازن الجنة بـ «رضوان» ، وهذا لا دليل صحيح عليه ، والصواب تسميته بخازن الجنة كما جاء في الحديث ، أفادني بها الشيخ محمد بن علي آدم الأثيوبي حفظه الله.

[4] رواه مسلم (١٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **أنا أول الناس يشفع في الجنة** ، وأنا أكثر الأنبياءِ تَبَعاً[1].[2]

فالنبي ﷺ هو أول من يدخل الجنة ، ولا يدخلها أحد قبله ، وفي هذا إظهارٌ لشرف النبي ﷺ وفضلِه ، إذ أنه صاحب الشفاعة العظمى ليريح الناس من كربات المحشر ، وصاحب الشفاعة الثانية لنيل الفرح والسرور بدخول الجنة.

وثاني شفاعات النبي ﷺ شفاعته لمن لا حِساب عليهم يوم القيامة في دخول الجنة ، ودليلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة ، وفيه: يا محمد ، أدخِل من أمتك من لا حِساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة[3].[4]

وثالثها شفاعةُ النبي ﷺ لعصاة المؤمنين ممن دخلوا النار بسبب معاصيهم في الخروج منها ، وهي التي عناها النبي ﷺ في قوله: (لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة)[5] ، وكذا في قوله ﷺ : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.[6]

---

[1] أي أتباعا من الناس.

[2] رواه مسلم (١٩٦) واللفظ له ، وأحمد (١٤٠/٣) ، والدارمي في المقدمة ، باب ما أعطي النبي من الفضل.

[3] قلت: في هذا تنبيه لفضلهم ، فإن للجنة سبعة أبواب كما جاء في التنزيل ﴿لها سبعة أبواب﴾ ، وكونهم يدخلون من الباب الأيمن منها فيه تنبيه لفضلهم ، فإن فضل التيامن معلوم في الإسلام.

[4] رواه البخاري (٤٧١٢).

[5] رواه البخاري (٦٣٠٤) ومسلم (١٩٨) والترمذي (٣٦٠٢) وابن ماجه (٤٣٠٧) وأحمد (٢٧٥/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[6] رواه الترمذي (٢٤٣٥) ، وأبو داود (٤٧٣٩) ، وأحمد (٢١٣/٣) وصححه الألباني في المشكاة (٥٥٩٨ – ٥٥٩٩) عن أنس رضي الله عنه.

الشفاعة الرابعة: شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب لتخفيف العذاب عنه ، لأنه كان يدافع عنه ويرد عنه أذى المشركين ، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ : ما أغنيتَ عن عمِّك؟ فوالله كان يحوطُك ويغضَبُ لك.

قال: هو في ضَحْضاحٍ[1] من نار ، ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفل من النار.[2]

هذه هي الشفاعات الخمس[3] التي سيقوم بها النبي ﷺ يوم القيامة ، العظمى ثم الشفاعات الأربع ، وجميعها خاصة به ﷺ إلا شفاعته لعصاة المؤمنين ممن دخلوا النار ، فإنها مشتركة مع غيره من الشفعاء ممن سيأتي ذكرهم قريبا بإذن الله ، ثم إن النبي ﷺ قد خُصّ بتكرار هذه الشفاعة أربع مرات ليُخلِّص أفواجا من أهل الكبائر من أمته من النار ، مرَّة بعد مرَّة.

٧. شفاعات الشفعاء

ومما يكون يوم القيامة شفاعة الشفعاء لمن استحقها ، والشفعاء أنواع ستة:

الأول: الرسل

الثاني: المؤمنون

الثالث: الشهداء

الرابع: الأفراط

الخامس: الملائكة

السادس: القرآن

---

[1] قال ابن لأثير في «النهاية»: الضَّحضاح في الأصل: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين ، واستعير هنا للنار.

[2] رواه البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩) وأحمد (٢٠٦/١).

[3] وانظر «تهذيب السنن» لابن القيم ،كتاب السنة ، باب في الشفاعة ، (٢٢٦٩/٥) ، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض.

تفصيل

النوع الأول: شفاعة الرسل لأقوامهم

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الرسل للمؤمنين من أتباعهم ممن دخلوا النار بسبب ذنوبهم أن يخرجوا منها ، ودليله حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إذا مُيِّز أهل الجنة وأهل النار ، فدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، **قامت الرسل فشَفَعوا** ، فيقول: انطلِقوا – أو اذهبوا – فمن عرفتم فأخرجوه ، فيخرجونهم قد امتُحِشوا[1] ، فيُلقُونهم في نَهَرٍ – أو على نَهَرٍ – يقال له «الحياة» ، فتسقط محاشُّهُم[2] على حافةِ النَّهَرِ ويَخرُجون بِيضاً مثل الثَّعارير[3] ، ثم **يَشفعون** فيقول: (اذهبوا – أو انطلقوا – فمن وجدتم في قلبه مِثقالَ قيراطٍ[4] من إيمان فأخرِجوهم) ، قال: فيُخرِجون بشرا ثم **يشفعون** ، فيقول: (اذهبوا – أو انطلقوا – فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردلة[5] من إيمان فأخرِجوه) ... الحديث.[6]

ومن الأدلة أيضا على شفاعة الرسل للمؤمنين الذين في النار حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: يقول إبراهيم يوم القيامة: يا ربَّاه ، فيقول جل وعلا: يا لَبَّيْكاه.

---

[1] المَحْشُ هو احتراق الجلد وظهور العظم. انظر «لسان العرب».

[2] أي ما احترق منهم.

[3] الثعارير: نبات القِثّاء الصغار ، شُبِّهوا بها لأن القثاء ينمو سريعا ، وقيل غيره. انظر «النهاية».

[4] القُرْط: نوع معروف من حُلِيِّ الأذن. انظر «النهاية».

[5] الخردل نبات عشبي ، منه بزور يُتبل بها الطعام ، واحدتها خردلة ، يضرب بها المثل في الصغر. انظر «المعجم الوسيط».

[6] رواه البخاري (٦٥٥٨) ، وأحمد (٣/٣٢٥) واللفظ له.

فيقول إبراهيم: (يا رب ، حَـرَّقْتَ بَنِيَّ) ، فيقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه ذرة أو شعيرة من إيمان.[1]

النوع الثاني: شفاعة المؤمنين

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة المؤمنين الذين في الجنة لإخوانهم المؤمنين الذين في النار ممن دخلوها بسبب ذنوبهم في الخروج منها ، ودليلها ما جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ... حتى إذا خَـلَصَ المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق **من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار** ، يقولون: ربنا ، كانوا يصومون معنا ويصلون (معنا)[2] ويحجون (معنا) (ويعملون معنا).

فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم.

فتُحَرَّم صُورُهم على النار[3] ، فيُخرِجون خلقا كثيرا ، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه.

ثم يقولون: ربنا ، ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به.

فيقول: ارجِعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خيرٍ فأخرِجوه.

فيُخرِجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون: ربنا ، لم نَذَرْ فيها أحدا ممن أمرتنا.

ثم يقول: ارجِعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقالَ نصف دينارٍ من خير فأخرِجوه.

فيُخرِجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون: ربنا ، لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا أحدا.

---

[1] رواه ابن حبان (٧٣٧٨) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه عليه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[2] أي تُحرَّم أجسام المؤمنين الذين هم من أهل الجنة على النار فلا يؤذيهم حرها إذا دخلوها لإخراج إخوانهم المؤمنين منها.

[3] ما بين الأقواس من لفظ البخاري دون مسلم.

ثم يقول: ارجِعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرِجوه.
فيُخرِجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون: ربنا ، لم نَذَرْ فيها خيرا.
وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾[1].[2]
هذا ما يتعلق بشفاعة المؤمنين لإخوانهم المؤمنين.

النوع الثالث: فصل في شفاعة الشهداء

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الشُّهداء لإخوانهم المؤمنين ، ودليله حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دَفعةٍ[3] ، ويَرى مقعده من الجنة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويَأمنُ من الفزع الأكبر ، ويوضعُ على رأسه تاجُ الوقار ، الياقوتةُ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويُزَوَّجُ اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين ، **ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربه.**[4]

[1] سورة النساء: ٤٠ .
[2] رواه مسلم (١٨٣) واللفظ له ، ورواه البخاري (٧٤٣٩) بدون قول أبو سعيد ، وما بين القوسين من لفظ البخاري.
[3] أي دفقة من دمه.
[4] رواه الترمذي (١٦٦٣) وابن ماجه (٢٧٩٩) وأحمد (١٣١/٤) ، وصححه الألباني في «الجنائز» ، ص ٥٠ ، سنة ١٤١٢ هـ.

النوع الرابع من الشفاعات: شفاعة الأفراط

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الأفراط لوالِدِيهم ، والفَرَط هو الطفل الذي مات دون البلوغ ، ودليله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ما من مسلمَين يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحِنْثَ[1] إلا أدخلهم الله بفضل رحمته إياهم الجنة.

قال: يقال لهم: أُدخلوا الجنة.

فيقولون: حتى **يدخل آباؤنا**.

فيقال: **ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم**.[2]

النوع الخامس: شفاعة الملائكة لعُصاة المؤمنين في الخروج من النار ، وأَنَّ الله تعالى يُخرِجُ أقواما تَكرُّما منه بلا شفاعةٍ من أحد

ومما يكون يوم القيامة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الملائكة لعصاة المؤمنين الذين في النار أن يخرجوا منها ، فبعد الشفاعات المذكورة يقول الله عز وجل: شفَعَت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين (وفي لفظ: **وبقيت شفاعتي**) ، فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ، قد عادوا حُمَماً[3] ، فيُلقيهم في نَهَرٍ في أفواه الجنة يقال له نَهَرُ الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيل.[4]

وفي حديث جابر رضي الله عنهما قال: يقول الله عز وجل: ... أنا الآن أُخرج بعلمي ورحمتي.

---

[1] أي البلوغ.

[2] رواه النسائي (١٨٧٥) ، وأحمد (٢/٥١٠) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٨٠).

[3] الحُمم هي الفحم ، واحدتها حُممة. انظر «لسان العرب».

[4] رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) واللفظ له ، عن أبي سعيد ، وما بين القوسين من لفظ البخاري.

قال: فيُخرِجُ أضعافَ ما أخرجوا وأضعافَه ، فيُكتبُ في رقابهم «عتقاء الله عز وجل» ، ثم يدخلون الجنة ، فيسمون فيها «الجهنَّميين».[1]

فهؤلاء يخرجون من النار بدون شفاعة من أحد ، بل برحمة أرحم الراحمين.

النوع السادس: شفاعة القرآن

يشفع القرآن للمؤمنين يوم القيامة ، ودليله حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة **شفيعا لأصحابه** ، اقرؤوا الزَّهراوين ؛ البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيايتان[2] أو كأنهما فِرْقان من طيرٍ صوافَّ[3] ، **تُحاجَّان عن أصحابهما**.[4]

فصل في بيان شرطي قبول الشفاعة

وهذه الشفاعات المذكورة لا ينالها كل أحد ، بل من تحقق فيه شرطا الشفاعة قَبِل اللهُ الشفاعة فيه ، ومن لا فلا ، وهذه الشفاعة هي التي تسمى بالشفاعة المثبتة ، أي ثابتٌ تحققها ، وشرطا الشفاعة هما:

---

[1] رواه أحمد (٣/٣٢٥) ، وصححه محققو «المسند» ، وقالوا: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[2] الغمامة معروفة ، والغياية هي كلُّ ما أظلّ الإنسانَ فوق رأسه. انظر «النهاية».

[3] فِرقان أي قطعتان ، وصوافُّ جمع صافَّةٍ ، أي باسطاتٌ أجنحتها في الطيران. انظر «المعجم الوسيط».

[4] رواه مسلم (٨٠٤) وأحمد (٥/٢٤٩).

١ – **إذنُ اللهِ للشافعِ أن يشفعَ** ، ودليل هذا الشرط قوله تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا **بإذنه**﴾[١] ، وقوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن **أذن له**﴾[٢].

وقد نصَّ القرآنُ في واحدٍ وعشرينَ موضعا على نفيِ حصولِ الشفاعةِ يوم القيامةِ إلا بإذن الله سبحانه وتعالى.[٣]

٢ – رِضى الله عن المشفوعِ له ، ودليل هذا الشرط قوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن **ارتضى**﴾[٤] ، وقوله تعالى ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن **ورضي** له قولا﴾[٥].

وقد جمع الله هٰذين الشرطين – الأول والثاني – في قوله تعالى ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن **يأذن** الله لمن يشاء **ويرضى**﴾[٦].

ومما يدل على أن الشفاعة لا تكون إلا بعد الرضى عن المشفوع له ؛ أن إبراهيم عليه السلام سيشفع لأبيه آزر ولكن لن يَقبلَ اللهُ شفاعتَهُ لكونه من المشركين ، مع أن الشافع هو إبراهيم عليه السلام ، خليل الرحمٰن.[٧]

---

[١] سورة البقرة: ٢٥٥ .

[٢] سورة سبأ: ٢٣ .

[٣] انظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ، مادة شفع.

[٤] سورة الأنبياء: ٢٨ .

[٥] سورة طه: ١٠٩ .

[٦] سورة النجم: ٢٦ .

[٧] روى البخاري في صحيحه (٣٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟
فيقول أبوه: اليوم لا أعصيك.

ومما ينبغي أن يُعلمَ أنَّ رِضى الله عن العبدِ لا يكون إلا بتحقيق التوحيد الذي هو إخلاص العبادات له سبحانه ، من صلاة ودعاء وذبح ونذر وغير ذلك ، كما قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فقال: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال «لا إله إلا الله» خالصا من قلبه ، أو نفسه.[1]

وقال أيضا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ... وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة ، إن شاء الله ، من مات من أمتي **لم يشرك بالله شيئا**.[2]

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ... وأعطيت الشفاعة ، وهي نائلة من أمتي **من لا يشرك بالله شيئا**.[3]

فيقول إبراهيم (أي لربه): إنك وعدتني أن لا تخزِيَني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد[٧]؟

فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال: يا إبراهيم ، ما تحت رجليك؟

فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

الذِّيخ: ذكر الضِّباع الكثير الشعر ، وقوله (متلطخ) أي في نتنه ، وقد نقل ابن حجر عن بعض الشراح أن الحكمة في مسخه ضبعا لتنفر نفس إبراهيم منه ، ولئلا يبقى في النار على صورته ، فيكون فيه غضاضة على إبراهيم ، خليل الرحمٰن ، وذكروا أن الحكمة في مسخه ضبعا أن الضبع من أحمق الحيوان ، وآزر كان من أحمق البشر ، فقد أصر على الكفر بعدما ظهر له من الآيات على يد ولده على أنه رسول من ربه ، فأصر على عبادة الأصنام.

قوله (قترة) في أول الحديث هي الغبرة يعلوها سواد كالدخان كما في «لسان العرب» ، وقال ابن حجر في شرح الحديث: القترة هي سواد الوجه من شدة الكرب.

[1] رواه البخاري (٩٩) وأحمد (٣٧٣/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] رواه الترمذي (٣٦٠٢) ، وقال حديث حسن صحيح.

[3] رواه أحمد (١٦٢/٥) ، والطيالسي (٤٧٢) ، وصححه محققو «المسند».

فهذه الأحاديث ونحوها تفيد اشتراط إخلاص العبادات كلها لله من دعاء وغيره لمن أراد أن يكون ممن سَعِدَ بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة ، أما من وقع في الشرك كدعاء المخلوقين أو الذبح لهم والنذر ونحو ذلك فإنه لن يشفع له أحد ولو فعل ما فعل ، وحتى لو شفع له أحد فإن شفاعته ليست مقبولة ولو كان الشافع له هو الرسول ﷺ لأن الشرك من موانع الشفاعة.

ولهذا فإن نبينا ﷺ قد أخبر قومه أنه لن يغني عنهم من الله شيئا ، لا شفاعة ولا غيرها ، إذا لم يحققوا التوحيد ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أُنزلت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1] دعا رسول الله ﷺ قريشا فاجتمعوا ، فعمَّ وخَصَّ[2] فقال: يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئا.[3]

وفي لفظ: يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا.

يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أغني عنك من الله شيئا.

---

[1] سورة الشعراء: ٢١٤ .

[2] أي جاء بالعام أولا من بطون قريش ، فنادى بني كعب ، ثم خص بعض البطون فنادى بني مرة بن كعب ، إلى أن خصَّ فنادى عمه وعمته وابنته.

[3] رواه مسلم (٢٠٤).

يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئا.[1]

وقول النبي ﷺ هنا لعمه العباس: (لا أملك لك من الله شيئا) ؛ هو كقول إبراهيم ﷺ لأبيه ﴿لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾[2] ، وليس ذلك بغريب فالدين واحد والتوحيد واحد.

ولهذا لما استغفر النبي ﷺ لأمه نهاه الله عن ذلك ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي.[3]
فاستغفار النبي ﷺ لأمه – وإن كان من أعظم أسباب المغفرة لأنه استغفار نبي – إلا أنه لم يُقبل منه ، لأن المانع كان أقوى وهو الشرك ، فالواجب الحذر.

فالحاصل أن الشفاعة غير مقبولة مطلقا إلا فيمن انطبق عليه شرطا الشفاعة المتقدمة ، وهما الإذن والرضى ، فالله تعالى لا يرضى عن عمل المشرك ، وعليه فلا يأذن في الشفاعة لمشرك.

فإن قيل: كيف الجمعُ بين حصول شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب – وقد مات مشركا – ، وما ذكرتم من أن كون المشركين لا يقبل الله الشفاعة فيهم؟

فالجواب: أن شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ليست لإخراجه من النار مطلقا كما هو الحال في عصاة المؤمنين ، وإنما لتخفيف العذاب عنه فحسب ، جزاء له ، لأنه كان يحوط النبي ﷺ ويدافع عنه.

---

[1] رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٤) واللفظ له ، والترمذي (٣١٨٥) والنسائي (٣٦٤٦) ، وأحمد (٣٥٩/٢).

[2] سورة الممتحنة: ٤ .

[3] رواه مسلم (٩٧٦) ، والنسائي (٢٠٣٣) ، وأبو داود (٣٢٣٤) ، وابن ماجه (١٥٧٢) ، وأحمد (٤٤١/٢).

فصل في بيان ما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر

يلتحق بالإيمان باليوم الآخر الإيمان كل ما يكون بعد الموت ، لأن الإنسان إذا مات فقد بدأت آخرته ، ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر أمران ؛ **الأول**: الإيمان بفتنة القبر ، **والثاني**: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه ، وهذا أوان التفصيل في كل منهما:

أ- الإيمان بفتنة القبر.

الفتنة هي السؤال والإختبار ، والمقصود بفتنة القبر سؤال الميت بعد دفنه عن ربه وعن دينه وعن نبيه ، فإن كانت الجنازة صالحة ثبَّتها الله عند السؤال فوُفِّقت للإجابة الصحيحة ، وإن كانت طالحة لم تُوفَّق للإجابة فعُذِّبت عياذا بالله ، وقد ورد في سؤال الميت في قبره أحاديث ثلاثة:

الأول: ما رواه البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قَرعَ نعالِهِم ؛ أتاه مَلَكان فيُقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل ، لمحمد ﷺ ؟

فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

فيُقال له: انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة.

فيراهما جميعا.

قال قتادة: وذُكِر لنا أنه يُفسَحُ له في قبره.

ثم رجع إلى حديث أنس قال:

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟

فيقول: لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال: (لا دَريت ولا تَليت) ، ويُضرب بمطارقَ من حديدٍ ضربةً ، فيَصيحُ صيحةً يسمعُها من يَليهِ[1] غيرُ الثَّقَلين[2].[3]

الدليل الثاني: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن الملكين يأتيان الميت المؤمن بعد دفنه فيُجلسانه فيقولان له: من ربك؟

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله ﷺ .

فيقولان له: وما عِلمُك؟

فيقول: قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدّقت.

فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي ، فأفرِشوه من الجنة[4] ، وألبِسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة.

قال: فيأتيه من رَوْحِها[5] وطيبها ، ويُفسح له في قبره مدَّ بصره.

---

[1] الذي يظهر من كلام ابن حجر رحمه الله في «الفتح» أن المقصود بقوله (من يليه) أي الحيوانات ، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار (يسمَعُهُ كل دابة إلا الثقلين).

[2] الثقلان هما الإنس والجن ، قال ابن حجر في شرح الحديث: لأنهم كالثُّقل على وجه الأرض.

[3] رواه البخاري (١٣٧٤).

[4] أي اجعلوا له فراشا من الجنة.

[5] قال الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح»: (مِن رَوحها) ؛ أي بعض رَوحها ، والروح بفتح الراء ؛ الراحة ونسيم الريح.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسُرُّك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير.

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجِع إلى أهلي ومالي.

ثم قال في الكافر: ويأتيه ملكان فيُجلِسانه فيقولان له: من ربك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فينادي منادٍ من السماء أن كذَبَ ، فأفرشوا له من النار ، وافتحوا له باب إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وسَمومها ، ويُضيَّق عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، مُنتِنُ الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول: من أنت ، فوجهُك الوجه يجيء بالشر؟

فيقول: أنا عملك الخبيث.

فيقول: ربِّ لا تُـقِم الساعة.[1]

الدليل الثالث: ما رواه البخاري في «صحيحه» عن هشام بن عروة عن امرأته فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر عن أختها عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ... ولقد أوحِي إليَّ أنكم تُفتنون في القبور مثل – أو قريبا – من فتنة الدجال – لا أدري أيتهما قالت أسماء – يؤتى أحدكم فيُقال له: ما عِلمك بهذا الرجل؟

فأما المؤمن أو الموقن – لا أدري أي ذلك قالت أسماء – فيقول: محمد رسول الله ﷺ ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا وآمنا واتبعنا.

فيقال له: نم صالحا ، فقد عِلمنا إن كنت لموقِنا.

وأما المنافق أو المرتاب – لا أدري أيتهما قالت أسماء – فيقول: لا أدري ، سمِعت الناس يقولون شيئا فقلته.[2]

فبيَّنت هذه الأحاديث أن الميت يُسأل في قبره ، فالمؤمن يثبته الله عند السؤال ويوفقه للإجابة الصحيحة ، كما قال تعالى ﴿يُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[3] ، وأما الكافر فلا يُجيب ، فيعامله الله بما يستحق.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/٢٨٧) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققو «المسند» وقالوا: رجاله رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) و «مشكاة المصابيح» (١٦٣٠).

[2] أخرجه البخاري (١٠٥٣) ، والشك في اللفظين من عند هشام بن عروة.

[3] سورة إبراهيم: ٢٧ .

ب- الأمر الثاني مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر هو عذاب القبر ونعيمه ، ودليل ذلك حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكُم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه.

ثم أقبل بوجهِهِ فقال: تعوَّذوا بالله من عذاب النار .

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب النار.

فقال: تعوَّذوا بالله من عذاب القبر.

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

قال: تعوَّذوا بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن.

قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال: تعوَّذوا بالله من فتنة الدجال.

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إذا تشهَّدَ أحدُكم فليَسْتعذ بالله من أربعٍ ، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، **ومن عذاب القبر** ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شرِّ فتنة المسيح الدجال.[2]

[1] رواه مسلم (٢٨٦٧).

[2] رواه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨) ، واللفظ لمسلم.

فصل في بيان من يستحق عذاب القبر

وعذاب القبر يكون لطائفتين من الناس ؛ عصاة المؤمنين ، والكافرين ، ودليل الأول حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على قبرين ، فقال: أما إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يَستَتِر[1] من بولِه.[2]

فالنميمة من كبائر الذنوب ، وكذلك عدم التنزه من البول ، فوقع مرتكبهما في معصية الله مع كونهما مسلمَين.

والدليل على عذاب القبر للكافرين قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكة بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[3] ، فقوله ﴿اليوم تجزون﴾ دليل على أنهم سيباشرون العذاب فورا.

وأيضا فالسياق يُفِيد بأن الظالمين يَشُحُّون بأنفسهم ، ولا يُريدونها أن تخرج ، لأنهم يُبشَّرون بالعذاب حينها ، عياذا بالله.

وقال تعالى في آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[4] ، فقوله ﴿غدوا وعشيا﴾ أي قبل قيام الساعة ، لأنه قال بعدها ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ ، ففرق بين العذاب الذي يكون قبل قيام الساعة والذي يكون في حينها.

---

[1] أي لا يجعل بينه وبين بوله سترة ، فيصيب الثوب نجاسة بوله.

[2] رواه البخاري (٢١٦) ومسلم (٢٩٢) ، واللفظ لمسلم.

[3] سورة الأنعام: ٩٣ .

[4] سورة غافر: ٤٦ .

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1] ، ووجه الدلالة من الآية قول الله على لسان الملائكة ﴿وأبشروا بالجنة﴾ ، وهذا يكون حال التَّوفِّي وخُروج الروح ، فالبشارة بالجنة حال التوفِّي وخروج الروح يعد من النعيم ، وهو الشاهد.

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[2].

ووجه الدلالة من الآية أن هذه البشارة بنعيم الرَّوح[3] والريحان وجنةِ النعيم يكون إذا بلغت الروح الحلقوم كما دلت عليه الآية ، وهذا فيه دلالة على النعيم الذي يلقاه الإنسان يكون مبدؤه عند موته ، وهو أول نعيم القبر.

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[4] ، ووجه الدلالة من الآية قوله تعالى على لسان الملائكة حال توفيهم للمؤمنين: ﴿ادخلوا الجنة﴾.

ومن الأدلة كذلك على بشارة المؤمن بالنعيم قُبَيل خروج روحه قوله تعالى ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾[5].

---

[1] سورة فصلت: ٣٠ .

[2] سورة الواقعة: ٨٣-٨٩ .

[3] الرَّوح هو الراحة ، وقد تقدم بيان معنى (الروح) ، وانظر تفسير ابن كثير للآيات المتقدمة.

[4] سورة النحل: ٣١ - ٣٢ .

[5] سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠ .

وقد دلت السنة على أن المؤمن يُبشر بالنعيم قبل خروج روحه ، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم ، وفيه قول الملكين للمؤمن بعدما يجيب الملكين على أسئلة القبر: (أيتها النفس الطيبة ، أُخرُجي إلى مغفرة من الله ورضوان) ، فتفرَح الروح وتخرُج خروجا سهلا ، فأي أدلة على نعيم القبر وعذابه أدل من هذه الأدلة؟!

ثم قال:

ثم ينادي مناد من السماء أن صَدَقَ عبدي ، فافرِشوه من الجنة ، وألبِسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة.

قال: فيأتيه من رَوحِها وطِيبِها ، ويُفسَح له في قبره مَدَّ بصره.

قال: ويأتيه رجل حَسَنُ الوجه ، حَسَنُ الثياب ، طَيِّبُ الريح ، فيقول: أبشِر بالذي يَسُرُّك ، هذا يومك الذي كنت تُوعد.

فيقول له: من أنت ، فوجهُك الوجهُ يجيء بالخير؟

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: ربِّ أَقِمِ الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.[1]

وبمقتضى هذه الأدلة من الكتاب والسنة أجمع المسلمون على ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

[1] أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/٢٨٧) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققو «المسند» وقالوا: رجاله رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) و «مشكاة المصابيح» (١٦٣٠).

فوائد متفرقة تتعلق بعذاب القبر ونعيمه

وأمرُ البِشارةِ بنعيم القبر أو عذابه أمرٌ مشاهد بالحِس ، ففي بعض حالات الوفاة يُرى المُحتضِر وهو يبتسم وكأنه قد نزلت به ملائكة الرحمة ، وقد يُرى غيره ووجهه كالحٌ وجِلٌ ، وكأنه قد نزلت به ملائكة العذاب.

وعذاب القبر جزء من عقوبة من أراد الله عُقوبتَه إن كان الميت مؤمنا ، وقد تدوم هذه العقوبة حتى تتصل بعذاب النار يوم القيامة ، وقد تنقضي عقوبته في قبره فلا تتصل ، كل هذا بحسب ذنوبه ، وبحسب مشيئة الله عز وجل ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه.

وفتنة القبر – أي سؤال الملكين – وعذاب القبر ونعيمه يحصل للإنسان سواء دُفِن في الأرض أو غرِق في البحر أو أكلته السباع أو احترق فصار رمادا ، فسبحان الله القدير.

فإن قيل: هل عذاب القبر ونعيمه يقعان على الروح أم على البدن؟

فالجواب عن هذه المسألة ما قاله العلامة الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في شرح «العقيدة الطحاوية»[1] حيث قال:

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا تتكلم عن كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما يُحيله المعقول ، ولكنه قد يأتي بما تَحار فيه العقول ، فإن عودَ الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تُعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

[1] انظر كلامه عند شرحه لقول الطحاوي: (والقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران).

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفاتٌ البتة ، فإنه ورد ردُّها إليه وقت سلام المسلِّم ، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يُولُّون عنه ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ، فالنوم أخو الموت ، فتأمُّل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قُبِرَ أو لم يقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونُسف في الهواء ، أو صُلب أو غَرق في البحر؛ وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور ، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقَصَّر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصلُ كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولا سيما إن أُضيف إليه سوء القصد ، والله المستعان.

فالحاصل أن الدور ثلاثة: دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وقد جَعَلَ الله لكل دارٍ أحكاما تخصها ، وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبعٌ لها ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تبع لها ، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام

الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً ، فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم ، ويجب أن يُعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وإن كان الله تعالى يُحمِي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ، ولو مسَّها أهل الدنيا لم يُحسُّوا بها ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يُدفنان ، أحدهما إلى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من حفر النار وهذا في روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره ، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه ، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب ، **ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما** ، وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير ، وإذا شاء الله أن يُطلع على ذلك بعض عباده أطلَعه وغيبه عن غيره ، ولو اطّلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تدافن الناس ، كما في الصحيح عنه ﷺ : لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع.

ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سِمعت ذلك وأدركته.

انتهى كلامه رحمه الله.

فصل في ثمرات الإيمان باليوم الآخر[1]

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة عند فعل المعصية والرِّضى بها خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

الرابعة: العلم بعدل الله تعالى ، حيث أنه سيجازي العباد على أعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

الخامسة: العلم بحكمة الله تعالى ، حيث أنه لم يخلق العباد عبثا ، بل خلقهم لحكمة بالغة وهي عبادته ، بفعل الطاعات واجتناب المنهيات ، ثم يحاسبهم على ذلك في الآخرة.

[1] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١٠٥ .

الركن السادس: الإيمان بالقَدَر خيره وشره

القَدَر هو تقدير الله تعالى للكائنات حسَبَ ما سبق في علمه واقتضته حكمته.

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور: الإيمان بالعلم والكتابة والمشيئة والخلق ، وهذا تفصيل الكلام فيها.

الأول: العلم ، أي الإيمان بأن الله تعالى عَلِمَ كُـلَّ شيء جملة وتفصيلاً ، أَزَلاً[1] وأبدًا ، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله ، كالإحياء والإماتة وإنزال المطر ، أو بأفعال عباده ، كأقوالهم وأفعالهم ، أو بأفعال الحيوانات ، فكلها معلومة لله عز وجل ، والدليل على هذا من الكتاب والسنة والعقل ، فأما الكتاب فقوله تعالى ﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾[2] ، وقال ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾[3] ، وقال تعالى ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾[4] ، وقال تعالى ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سِرَّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾[5] ، فهو يعلم السر الذي يخفيه الإنسان في قلبه ، والحديث الذي يحدث به نفسه ، ويعلم النجوى ، وهو كلام الإنسان مع صاحبه.
وقال تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[6].

---

[1] الأزل هو القِدم. انظر «لسان العرب».
[2] سورة الأحزاب: 40 .
[3] سورة الطلاق: 12 .
[4] سورة غافر: 7 .
[5] سورة الزخرف: 80 .
[6] سورة الأنعام: 59 .

وظلمات الأرض المقصودة في الآية الكريمة هي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الطين وظلمة السحاب وظلمة المطر وظلمة الغبار ، فهذه الظلمات السِّتُّ لا تحولُ دون علم الله عز وجل بتلك الحبة ورؤيته لها ، والله أعلم ، فربما كان هناك ظلمات غير هذه الظلمات السِّتِّ لا نعلمها.

والمقصود بالكتاب المبين في الآية هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء.

قال ابن عثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية»[1] ما محصَّله أنه لوحٌ كَتَب الله فيه مقادير كل شيء ، ووُصِف بكونه محفوظا لأنه محفوظٌ من أيدي الخلق ، فلا يمكن أن يُلحِق أحدٌ به شيئا ، أو يُغيِّر به شيئا أبدا ، كما أنه محفوظٌ من التغيير ، فالله عز وجل لا يُغيِّر فيه شيئا لأنه كتبه عن علم منه. انتهى.

وعِلمُ الله بكل شيء قد دل عليه العقل ، وذلك أن الله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق ، ولا بد أن يكون الخالق عالما بما خلق ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2].

وعِلم الله عز وجل لم يسبقه جهلٌ ولا يلحقه نسيان ، ولهذا لما قال فرعون لموسى ﴿فما بال القرون الأولى﴾ ؛ أجاب موسى فقال ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يَضل ربي ولا ينسى﴾[3] ، ومعنى لا يَضل أي لا يَجهل.

أما علم البشر فإنه محفوف بهاتين الآفتين: الجهل السابق والنسيان اللاحق.

وإنكار عِلم الله لما سيكونُ في المستقبلِ كفرٌ ، ولهذا لما ظهر قوم في القرن الأول يقولون إن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه ؛ قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما للذي أخبره عنهم

---

[1] (197/2).

[2] سورة الملك: 14 .

[3] سورة طه: 52 .

– وهو يحيى بن معمر – : أخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني ، والذي يَحلِف به عبد الله بن عمر ؛ لو أن لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم روى عن أبيه عن النبي ﷺ حديث جبريل المتقدم[1] ، لما سأل النبي ﷺ عن الإيمان ، فأجابه ، وذكر أركانه ، وعَدَّ منها الإيمان بالقدر.[2]

فبراءة ابن عمر ممن أنكر عِلمَ الله بما سيكون في المستقبل ظاهرة في تكفيره إياهم ، وقد حكى القاضي عياض رحمه الله إجماع العلماء على كفر من قال بهذا القول ، فقال في شرحه على الحديث: القائل بهذا كافر بلا خلاف.[3]

الثاني: الكتابة ، أي الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة في اللوح المحفوظ ، كتب ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال تعالى ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[4].

وقال ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾[5].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **كتب** الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.[6]

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له: اكتُب.

---

[1] انظر مقدمة الكتاب.

[2] رواه مسلم (8).

[3] انظر «شرح النووي على صحيح مسلم» ، حديث رقم (8).

[4] سورة التوبة: 51 .

[5] سورة الحديد: 22 ، وانظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة.

[6] رواه مسلم (2653).

قال: ربِّ ، وماذا أكتُب؟

قال: اكتُب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.

ثم قال عبادة لابنه: يا بني ، من مات على غير هذا فليس مني.[1]

قلت: وفي هذين الأمرين – العلم والكتابة – يقول الله تعالى ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾[2].

الثالث: المشيئة ، ومعناها الإيمان بأن جميع ما يكون ويحصل في هذا الكون لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى ، أي بإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله ، كالإحياء والإماتة وتدبير أمور هذا الكون ، أو مما يتعلق بأفعال المخلوقين ، من ذهاب ومجيء ، وفعل وترك ، وطاعة ومعصية ، وغير ذلك من أفعال العباد التي لا تعد ولا تحصى ، قال الله تعالى فيما يتعلق بفعله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ﴾[3] ، وقال ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء﴾[4] ، وقال ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء﴾[5].

---

[1] رواه أبو داود (4700) والترمذي (3319) واللفظ لأبي داود ، وصححه الألباني رحمه الله.

[2] سورة الحج: 70.

[3] سورة القصص: 68 .

[4] سورة إبراهيم: 27 .

[5] سورة آل عمران: 6 .

وقال تعالى فيما يتعلق بأفعال المخلوقين ﴿وَلَوْ شَاء اللَّه لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾[1] ، فالاقتتال الذي هو فعل العبد لا يقع إلا بمشيئته ، أي بإذنه الكوني ، وقال ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[2] ، وقال ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾[3].

فلا يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله أم بأفعال عباده ، لأن هذا الكون ملك لله ، فما دام الشيء ملكه فإنه لا يكون في ملكه إلا ما شاءه وأذِن به ، ولا يكون في ملكه شيء بدون إذنه ، ولو كان يقع شيء بدون إذنه لكان ملكه ناقصا ، تعالى الله عن ذلك.

الرابع: الخلق ، أي الإيمان بأن جميع الكائنات خلقها الله تعالى بذواتها وصفاتها وأفعالها من العدم ، قال الله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[4].

وقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[5].

وقال عن نبي الله إبراهيم ﷺ أنه قال لقومه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[6].

وقال ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[7].

---

[1] سورة النساء: 90 .

[2] سورة الأنعام: 112 .

[3] سورة الأنعام: 107 .

[4] سورة الزمر: 62 .

[5] سورة الفرقان: 2 .

[6] سورة الصافات: 96 .

[7] سورة القمر: 49 .

وثمّتَ دليلٌ عقليٌ على أن الله هو الخالق لأفعال العباد ، وهو أن الفعل وصف للفاعل ، والصِّفة تتبع الموصوف ، فإذا كان الإنسان مخلوقا لله فكذلك أفعاله مخلوقة بدلالة التّضمُّن ، لأنّ خالقَ الأصلِ خالقٌ للفرعِ.

وبهذا تم الكلام على مراتب الإيمان بالقدر ، العلم والكتابة والمشيئة والخلق ، وقد جمع بعضهم مراتب الإيمان بالقدر في قوله:

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُه ... وخلقُه وهو إيجادٌ وتكوين

فصل في بيان أنواع التقدير[1]

أنواع التقدير ثلاثة:

1. **التقدير الأزلي**[2] وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة عندما خلق الله تعالى القلم ، فقال له: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.[3]

2. **التقدير العُمري** ويكون عند تخليق النطفة في الرحم ، فيكتب إذ ذاك ذكورتها وأنوثتها ، والأجل والعمل ، والشقاوة والسعادة ، والرزق وجميع ما هو لاقٍ ، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه ، ودليله حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً[4] ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم

---

[1] هذا الفصل مختصر من «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله ، فصل: الإيمان بالقدر على أربع مراتب ، ثم زدت عليه كلاما للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله.

[2] تقدم بيان أن الأزل هو القِدم.

[3] تقدم ذكر الحديثين الدالين على ذلك في أول الباب.

[4] وهذا في حال كونه نُطفةً من ماء.

يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يَبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح ... الحديث.[1]

3. **التقدير الحَولي** ويكون في ليلة القدر ، ويقدر فيها ما يكون في السنة إلى مثلها في السنة المقبلة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين﴾[2].

قال الحسن البصري رحمه الله: والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كل رمضان ، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ، يقضِي الله كلَّ أجلٍ وخلق ورزقٍ إلى مثلها.[3]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر ، حتى الحُجَّاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.[4]

وأخرج الطبري نحوه عن مجاهد.[5]

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي[6] رحمه الله في تفسيره عند تفسير قول الله تعالى ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾:

---

[1] رواه البخاري (3208) ومسلم (2643).

[2] الدخان: 3- 5 .

[3] رواه ابن جرير الطبري وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن جرير.

[4] رواه ابن جرير الطبري وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن جرير.

[5] وصححه الشيخ د. حكمت بشير ياسين كما في كتابه «التفسير الصحيح» (313/4) ، ط 1 ، الناشر: دار المآثر – المدينة.

[6] هو الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ، من فحول علماء نجد ، استوطن بلدة عنيزة من مدن القصيم ، ولد عام 1307 وتوفي عام 1376 هجري ، تتلمذ على يده عدد من الطلبة صاروا فيما بعد من علماء المسلمين ، كالشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام ، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين وغيرهم ، رحمهم الله. انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون» ، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام رحمه الله.

أي يُفصَل ويُميَّز ويُكتب كلُّ أمرٍ قدريٍّ وشرعيٍّ حَكَمَ اللهُ به ، وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى الكتابات التي تُكتب وتُميَّز ، فتُطابِقُ الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم[1] ، ثم إن الله تعالى قد وَكَلَ ملائكةً تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطنِ أمه[2] ، ثم وَكَلهم بعد خروجه إلى الدنيا ؛ وَكَلَ به كراما كاتبين ، يكتُبون ويَحفظون عليه أعماله ، ثم إنه تعالى يُقدِّر في ليلة القدر ما يكون في السنة ، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه. انتهى.[3]

---

[1] أي ما كان في التقدير الأزلي.

[2] أي ما كان في التقدير العمري.

[3] وهكذا قال الشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة في كتابه «أضواء البيان» ، وزاد ثلاث فوائد فقال:

فدعوى أنها (أي الليلة المباركة) ليلة النصف من شعبان –كما رُوي عن عكرمة وغيره – لا شك في أنها دعوى باطلة ، لمخالفتها لنص القرآن الصريح ، ولا شك أن كل ما خالف الحق فهو باطل.

والأحاديث التي يُوردها بعضهم في أنها من شعبان ، المخالفة لصريح القرآن ؛ لا أساس لها ، ولا يصح سند شيء منها ، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين.

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة.

ثم قال: وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

ثم قال: وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة يدل أيضا على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر ، فهو بيان قرآني آخر.

وإيضاح ذلك أن معنى قوله ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة ، من رزق وموت وحياة وولادة ومرض وصحة وخِصبٍ وجَدب وغير ذلك من أمور السنة ... وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله ﴿فيها يُفرق كل أمر حكيم﴾. انتهى كلامه رحمه الله.

ثمرات الإيمان بالقَـدَر[1]:

الإيمان بالقدر له ثمرات جليلة ، منها:

الأولى: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب ، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه ، لأن كل شيء بقدر الله تعالى.

الثانية: إضافة النعم إلى مُسدِيها ، فلا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده ، لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قدَّرَه من أسباب الخير والنجاح ، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

الثالثة: الطُّمأنينة والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى ، فلا يقلق بفوات محبوب أو حصول مكروه ، لكون ذلك من عند الله ، وحصل بقدر الله الذي له ملك السماوات والأرض ، وهو كائن لا محالة ، فإذا علم المؤمن ذلك وتيقن به ؛ صبر على ذلك واحتسب ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ من قَبْلِ أَن نبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].

قوله ﴿نَبرأَها﴾ أي نخلِقها ، والضمير عائد على المصيبة ، وقيل على الأنفس ، وقيل على الأرض ، والكل صحيح.[3]

---

[1] الثمرات الثلاث الأولى مستفادة من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص 115 - 116 .

[2] سورة الحديد: 22-23 .

[3] قاله ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (202/2).

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.[1]

الرابعة: رجوع العبد إلى ربه إذا علم أن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وأن ما أصابه من سيئة فمن نفسه.

الخامسة: معرفة حكمة الله عز وجل بالنظر إلى ما قدر وقضى من المجريات والحوادث.

[1] رواه مسلم (2999).

خاتمة ووصية

وبهذا تمت هذه النبذة في أصول الدين الإسلامي ، التي من تمسك بها نجا ، ومن حاد عنها هلك ، وهي أصول متفق عليها بين المسلمين ، ولها في دين الإسلام شأن عظيم ، وقد اعتنى بها القرآن أشد العناية ، لأن غيرها متفرع عنها ، ومبني عليها ، فإذا صلحت صلح دين المرء ، وإذا فسدت فسد تبَعًا ، ولهذا كان النبي ﷺ يؤكِّد عليها في خطب الجمعة ، قال ابن القيم رحمه الله:

وكذلك كانت خطبته ﷺ ؛ إنما هي تقرير لأصول الإيمان ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا ومعرفةً بالله وأيامه.

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه ؛ وجدها كفيلةً ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله ، وذكر آلائه تعالى التي تُحببه إلى خلقه ، وأيامه التي تُخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه ، فيذكرون[1] من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه[2] إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم.[3]

---

[1] أي النبي ﷺ وأصحابه في خطبهم ، وهم المشار إليهم في أول الكلام.

[2] أي الله تعالى.

[3] «زاد المعاد في هدي خير العباد» (1/423-424) ، باختصار ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

قلت: فحريٌّ بمن ولاّهُ اللهُ منبرا من منابر الدعوة إلى الله أن يعتني بذكر أركان الإيمان ، ويؤكد عليها ، تأسيا بالنبي ﷺ في منهجه في الدعوة إلى الله.

فائدة لطيفة قبل الختام

سُئل فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان[1] حفظه الله عن الحكمة في ترتيب أركان الإيمان في الآيات والأحاديث فأجاب:

بُدِئت هذه الأركان بالإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله هو الأساس ، وما سواه من الأركان تابع له. ثم ذكر الإيمان بالملائكة والرسل ؛ لأنهم الواسطة بين الله وخلقه في تبليغ رسالاته ، فالملائكة تنزل بالوحي على الرسل ، والرسل يبلغون ذلك للناس ، قال تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[2].

ثم ذكر الإيمان بالكتب ، لأنها الحجة والمرجع الذي جاءت به الرسل من الملائكة والنبيين من عند الله للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[3].

---

[1] هو الشيخ الفقيه الذاب عن دين الله ، العالم في العقيدة والفقه ، المقدم في علوم الشريعة ، طالما دافع عن العقيدة الإسلامية ورد على أهل البدع ، جمعت ردوده فوقعت في ثلاث مجلدات ، له مؤلفات كثيرة في فنون متنوعة ، أوصى بالرجوع إليه الشيخان الجليلان عبد العزيز بن باز ومحمد بن عثيمين قبيل وفاتهما ، حفظه الله ذخرا للإسلام والمسلمين.

2 سورة النحل: 2 .

3 سورة البقرة: 213 .

ثم ذكر الإيمان باليوم الآخر ، لأنه ميعاد الجزاء على الأعمال التي هي نتيجة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أو التكذيب بذلك ، فكان مقتضى العدالة الإلهية إقامة هذا اليوم للفصل بين الظالم والمظلوم ، وإقامة العدل بين الناس.

ثم ذكر الإيمان بالقضاء والقدر لأهميته في دفع المؤمن إلى العمل الصالح ، واتخاذ الأسباب النافعة ، مع الاعتماد على الله سبحانه ، ولبيان أنه لا تناقض بين شرع الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه وبين قضائه وقدره ، خلافا لمن زعم ذلك من المبتدعة والمشركين الذين قالوا ﴿لو شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، سوَّغوا ما هم عليه من الكفر بأن الله قدّره عليهم ، وإذا قدّره عليهم فقد رضيه منهم – بزعمهم – ، فرد الله عليهم بأنه لو رضيه منهم ما بعث رسله بإنكاره ، فقال ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[1].

انتهى كلامه حفظه الله.[2]

اللهم إنا نسألك إيمانا صحيحا ، ودينا سليما ، ومردًّا غير مخزٍ ولا فاضح ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلَّم تسليما كثيرا.

وكتبه ماجد بن سليمان الرسي

---

1 سورة النحل: 35 .

[2] منقولة من شبكة المعلومات ، موقع شبكة سحاب السلفية.

ثبت لأهم المراجع

- تعظيم قدر الصلاة ، محمد بن نصر المروزي ، تحقيق كمال بن السيد سالم ، الناشر مكتبة العلم – مصر
- الزهد ، عبد الله بن المبارك ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه محمد ، الناشر – دار القاسم – الرياض
- النبوات ، ابن تيمية ، تحقيق د. عبد العزيز الطويان ، الناشر: دار أضواء السلف – الرياض
- شرح العقيدة الواسطية ، الشيخ محمد بن عثيمين ، ط 6 ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام
- شرح ثلاثة الأصول ، محمد بن صالح بن عثيمين ، إعداد: فهد بن ناصر السليمان ، الناشر: دار الثريا – الرياض